أسير

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : أسير
اسم المؤلف: زكريا شحاده
التدقيق اللغوي: ريهام مصطفى
تصميم الغلاف: مجد الزين
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ٢٦٩٣٧ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٨٢-٢

شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر

01020439639

massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

أسير

زكريا شحاده

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

أهدي روايتي الأولى إلى الأشخاص الذي كنت مدرك لتأثيرهم بطريقة ما أو بأخرى في إتمام هذا العمل، سأبدأ بوالديّ اللذين برغم بعدهما عني آلاف الكيلومترات لا زلت إلى الآن أشعر على الدوام بمظلتهما الرحيمة تطوف فوقي وتحميني أينما توجهت، ثم حبيبتي وصديقتي المفضلة آلاء العبد مع اصدقائي المفضلين: مجد الزين وصبري السعيد وسعد الله داديخي ومحمود العبد، كانوا جميعهم منذ البداية مصدر إلهام كبير لي كلٍ بطريقته الخاصة، وقد جعلوا من الحياة حتى في أقسى سنواتها مكاناً محتملاً للعيش.

الفصل الأول

يُقال أن الإنسان لا يولد عدميًّا، بل يصبح كذلك.

وفي لحظة ما في ماضي أسير زحف وجوده نحو بوابة العدم، تسرب معنى الحياة خارج حدود جسده كساعة رملية أوشكت على نهايتها، وقد تراءت له هذه الحقيقة لأول مرة عندما صوب فوهة مسدس نحو رأس أبيه، شعر حينئذ بومضة عدمية عنيفة، ومضة أيقظت إحساسًا غامضًا ولذيذًا في تحطيم كل شيء، بدءًا من العالم وانتهاءً به.

اصطبغت السماء الملبدة بالغيوم بلونها القاتم عندما كان يجرجر جسده الهزيل، فوق شارع يقع في حي من أحياء مدينة حلب، محاط من على طرفي الشارع أبنية خاوية، هياكلها مشوهة، وبيوتها عارية، كعجوز سافرة نحيلة، جراء قصف مدفعي صاروخي على الحي محى أدنى أثر للحياة فيه، لا حي ظل ينبض بنواح الأطفال، ولا أعين قلقة تتضرع للنوم، لا شيء نهائيًا، كل شيء بات صلبًا، مخدرًا، وعدميًّا.

داخل كتلة مدورة باردة تعلو كتفا أسير أصوات كامنة مسعورة تدفعه وسط هذا الخراب الأجرد لتفجير رأسه، وإهماد ما يسمى الحياة

من أغلالها العظمية، لطالما كان العدم بكل معانيه يغريه ويجذبه، فراغ أسود يبلعه ويهضمه في خوائه الأبدي، وقف يجيل بتأمل هذا الدمار العبثي الغارق في صمته التام، عظمة بشرية ناتئة بين أحجار أسمنتية، جثة قطة معفنة، دمية أطفال مغبرة، غطاء صلاة أبيض ممزق، جهاز راديو صغير، يتطلع، أليس الفاصل بين الوجود والعدم لا يتعدى ومضة ضوئية! أليس احتمال الموت أكبر من احتمال الحياة!

مؤخرًا بات لا يحس بأي تفوق عن هذا العبث، عن تلك المواد الميتة، شلت حركته الإنسانية، كل شيء بات ضبابيًّا، متآكلًا، يلمح إلى لا معنى لهذا كله، والتباين الوحيد بينه وبين جثة هامدة لحظات معدودة، وقد حرر نفسه منذ مدة طويلة من الوهم البشري الديني الذي يعظه بمسؤوليته الخلقية، ووجوده الغائي.

بلغ سطح البناء، ودَّعَ العالم من حوله بنظرة أخيرة شاردة، كان المشهد يحاكي نهاية قصة تراجيدية، سحب المسدس من جيبه، تمعن النظر به، تأمله جيدًا، ثم أرخاه، محافظًا على رأسه مطـأطأ، تسارعت نبضات قلبه، اضطربت قسمات وجهه، تسابق شهيقه بزفيره، تهاطل المطر فوقه وابلًا، سرت قشعريرة باردة أسفل ظهره، ارتجف على أثرها

كافة أعضائه، تأتأة بشفتين مرتجفتين:

- لا لا لا، م م معنى لهذا ك ك كله، لا لا ممعنى للهذا كله.

علت تعابير التصميم على وجهه، أغلق عينيه لحظات بشدة، نشد من خلالها العزم والجرأة، رفع رأسه للأعلى، سالت قطرات الماء على وجهه.

رفع المسدس، ارتعشت يداه، ومضت السماء عدة ومضات علامة على قدوم أصوات، ضغط على الزناد تزامنا مع دوي الرعد بشكل حاد وعنيف.

الفصل الثاني

توارى أسير خلف غرفته من الداخل، واقفًا بوضعية التبول، متهالكًا برأسه على الباب، وصام أذنيه براحة كفه، وذلك بسبب سجال يومي معتاد يتزعمه لسان والده مع أمه، والمتعلق به، يبدأ بكلمة عفوية ترمى على طاولة الطعام، ثم ينتهي باحتدام شديد وعريض، يثور فيه والده ويتملكه سخط عارم، فيخبط بقبضته الخشنة على طاولة الطعام، ثم يلحقها بشتائم سوقية، بينما ينتهي الأمر بوالدته قانطة تذرف دموعها وحيدة أثناء هضمها للقمة تجد صعوبة في بلعها إزاء نشيج مضطرب، أما أسير فينسحب كسلحفاة جبانة داخل حصنه، يثقله شعور عميق بالذنب الذي كان مصدره قلق أمه عليه وتعاستها، وبأنه علة أساسية لكل هذا الخلاف العائلي الذي يتفاقم يومًا بعد يوم تحت ما يسمى بسقف العائلة.

هناك من خلف حصنه، تتناهى إلى مسامعه شجارات والديه وصياحهما الممزوج مع طبول الحرب التي تُعزف على ألحان الأسلحة الثقيلة، والمدفعيات الصاروخية، والغارات الجوية، هناك يختبئ خائفًا،

ويرتعش كحمة بردية، يلتقط سماعته ويرتمي خلف موسيقاه الصاخبة، لعلها تهدئ من روعه، ولكن عبث، ظلت أسنان التوتر تقضمه، أعضائه تغلي غليانًا شديدًا، وفي تجاويف رأسه المظلمة، إلحاح عنيف أشبه بإنذار طوارئ، لمحاولة إخماد هذا الانفجار العصبي الحاد الذي يصيب جسده في المواقف المشحونة، فهو بحاجة إلى مخرج طوارئ، منفذ سريع يرطب بواسطته أعصابه المشدودة قبل ما أن تبدأ أطرافه بالتنميل وربما الإغماء، فأخذ يلوذ إلى أسلوبه المعهود، وهو الاستمناء العضوي، كان من خلال هذه العادة يفرغ طاقاته وإحباطاته، فاستحالت وسيلة لتخفيف صراعاته اليومية، شغل مقطعًا إباحيًّا مصنفًا ضمن فئة السادية والعقاب، خياله الجنسي المفضل، تعتقه كليًّا كجذوة سكبت بالماء، ولكن ما إن تلبث نطافه بالتدفق حتى يكبله العار ثانية، علت التأوهات الجنسية عبر سلك سماعته، بينما السلك الآخر كان معطل، أطبق جفناه بشدة لحظات قليلة، ساعيًا في تقليص العالم من حوله، وصب كافة حواسه في المقطع الإباحي، تقتحم حشرة طائرة فقاعته السرية، تحوم فوقه وتربكه بين فينة وأخرى، يلوح لإبعادها، ولكن لا تنفك تعود وتغيظ أعصابه أكثر فأكثر، طاردها بهوس وكأنها قضيته الكبرى.

أما ما كان يسمع من عبارات والده وراء الباب فهي تلمح إلى نقص في رجولته، وانعدام في ثقته، وتفاهة جيله، وفشله وضياعه في الحياة، بالإضافة إلى شتائم وأحكام واتهامات تصف شخصيته وعيوبه.

وفي الطرف الآخر عبارات دفاعية من الأم بالكاد مسموعة أمام جهورية الأب، وهي تحاول تهدئته وإقناعه برغبته بالسفر خارج البلد قائلة:

- يريد أن يسافر، هذه رغبته، اسمح له أن يسافر، ساعده.

- رغبته أن يسافر؟ رغبته أن يسافر؟ ابنك لا يستطيع نزع شوكة من إصبعه، ابنك لا يعرف كيف يقلي بيضتين، ابنك لا يتمكن من نطق كلمتين، تقولي لي رغبته هي السفر!

- هذا قراره، أعطيه فرصة كي يتحمل مسؤوليته.

- لن أدعه يسافر.

- لماذا تعترضه في طريقه؟

- لن أدعه يسافر، هذا قرار نهائي.

- لماذا، قل لي لماذا؟

- لن أدعه يسافر، على موتي، على جثتي، لن يسافر أحد (بصياح شيطاني).

- إذًا تحمل مسؤولية موته البطيء هنا أمام عينيك.

استشاط الأب غضبًا حادًّا على إثر جملتها الأخيرة، انتصب بزيه العسكري الأخضر بانفعال مبالغ، رفع يده وصفعها على خدها، قرأ نظراتها النافذة بعمق داخله، نظرة عتاب ولوم، لهث وتنهد، ثم التفت باستياء وعصبية نحو غرفته، تركها يائسة بدموع ثقيلة تتكور بين جفنيها.

بينما ما يجري أثناء هذه الأحداث في حصن أسير،

تعلو تأوهات مزيفة من سلك سماعته، أنزل بنطاله لمس عضوه، سعى في استحضار أي نوع من أنواع الثقة بالنفس داخل ثنايا دماغه المحطمة، كانت هيئته المأساوية أشبه بزوج عنين عاجزًا عن إرضاء زوجته، بينما كانت ألفاظ الأب الرنانة يتردد صداها في أذنه، وتلسع رجولته وكرامته كشرارة حارقة، راح يدقق في شاشته، ويتضرع لقطرة دوبامين واحدة تثبت له أن للحياة شكلًا آخر، مما خوله على أن يقسو على مداعبة قضيبه، بحيث كان عقله النظري يقوم بتأويل الاستمناء

كإشارة ذاتية وضمنية يقول فيهما لوالده:- انظر.. كم أنا رجل، انظر كم أملك من الرجولة التي يجب أن تفتخر بها.

ولكن لجوئه إلى غريزته الحيوانية، كغمامة تغطي على إحساسه بالضآلة والصغر، باءت بالخزي، وذلك بسبب أن النطاف التي تتدفق على مضض من عضوه، دائمًا ما تجلب معها تيار من التعاسة والإحباط، وعدم الثقة بالنفس أكثر مما سبق، فطمره شعور بالعار طغى على رجولته.

تنبه لصوت خبطة، ولكن لم تكن تشير هذه المرة خبطة على طاولة، إنما على لحم بشري، لحم أمه، وقف مشدوها، ودون أن ينبس ببنت حرف، شعر بحيطان الغرفة تضيق عليه من كل جانب، طاقة كهربائية كثيفة سرت بين خلاياه، نبضة ما في سراديبه المظلمة تدفعه إلى أن يضع حدًّا ما لهذا الظلم مهما كلف الأمر، وبنظرات حاسمة في مرآته الصغيرة المعلقة، أشبه بتصميم مكثف وعنيد، حمل كأس وحبس بواسطتها أخيرًا الحشرة الواقفة على المرآة التي كان يطاردها عما قليل، انتزعها من مسمارها باليد الأخرى، ومددها على فراشه، تأمل عجزها وهي تتخبط في جدار الكأس، حمل قبضته وأسقطها على الحشرة، متزامنًا مع إبعاد

الكأس، راقب دمائه الممزوجة مع دماء الحشرة، رغم تألمه إلا أن مشاعر غريبة نفضت كيانه، بنوع من الانتصار ربما، أو اللذة، أو الرضى، أكثر مما أحسه من إفراغ خصيتيه، انتشلها من بقع الدماء، ونظر نحوها باشمئزاز وتعالي، وقرب شفتاه، وتأتأة بسخرية:

- ك ك كأن، ل ل وجودك معنى.

رماها في سلة قمامته، التقط منشفة ومسح يده، تراءت نفسه خلف المرآة المشوهة ببقع الدماء، نظف الفراش من قطع الزجاج المكسور، ارتدى سترته السوداء، والتقط دفتره العلم، والتمس يصغي خلف الباب، الجو هادئًا وساكنًا، شق الباب بهدوء وتروي، تفحص وجود أي أثر للمشاجر، مشى بحذر ونوع من الجبن يتملكه، استقبلت أمه وجوده وكأنها تنبأت رؤيته أو شمت رائحة خوفه، كانت لا تزال جالسة على الطاولة، والطعام لا يزال مفروش فوقها، ارتأت الخوف في عينيه، طلبت منه بلكنتها الحنونة بأن يتقدم ويتعشى معها، ثم أبصرت دماء يده، وثبت من مكانها واتجهت نحوها ورفعتها، رمقته بنظرة عتاب حميمي وخوف أمومي، فلاحظ خدها المحمر جراء الصفعة، جلبت من خزانة الأدوية شاش أبيض، ولففته بحذر على يده، بعدما

طهرت جرحه، وكانت ردة فعلها وانفعالها، وكأن هذا الجرح هو كل ما يقلقها في الوجود، جلبت بضعة أوراق نقدية وأعطته إياها، تمنع ورفض، وأكد لها كاذبًا أنه لا يحتاج المال، أصرت عليه فأخذهم، شكرها بابتسامة مصطنعة، وودعها ومضى ذاهبًا خارج البيت، أوقفته كي يأكل، ولكن أكد لها شبعه، ثم خرج على عباراتها:

الله يحميك يا ابني، انتبه على حالك.

نزل أسير سلم الدرج وفي قرارة نفسه تنمو بواعث الضيق والكدر، وعلى محياه تظهر ملامح الشرود والتيه، رغم كافة صراعاته النفسية المتشابكة، لا شك أن تأنيبًا لاذعًا كان طافيًا على السطح ينخز ضميره كشوكة في الحلق، عتابًا ينتخب نفسه ذاتيًا بلا معاتب، والذي يتعلق بأمه، بعطفها الزائد، بحنيتها المبالغ فيها، هما أكثر ما يقلقه في الوجود من أي شيء آخر، ربما لو ضربته كما يفعل والده أو قامت بتأنيبه أو رمته خارج البيت لكان تحمل هذا الأمر أسهل على نفسه.

لمح فتاة غريبة صاعدة سلم الدرج بالكاد أدرك ملامحها، وقد تخطاها غفلة، مخلفة وراءها غبار عطر اخترق فتحة أنفه، فانبجست في رأسه ذكرى ضبابية ارتمت سريعًا في قمامة اللاوعي، كانت تحمل بين يدها

لوحة ممزوجة بألوان ربيعية، تابع طريقه قاصدًا النادي الإلحادي، انتظر طويلًا قبل ما أن يأتي باص يشغل كرسي شاغر، على لحن حربي يدور رحاه في سماء مدينة حلب، ومضات براقة تخفق بين ضربة وأخرى، يعقبها دوي حاد ترتجف إزاءها أركان المدينة، امتطى كرسيًّا يقابل وجوه الركاب.

أخيرًا بلغ النادي الإلحادي، بعدما اعترض السرفيس عدة حواجز أمنية، طلب عساكرها بطاقاتهم الشخصية ودفاترهم العلم للتحقق من هوياتهم، ومن خدماتهم الإلزامية، والتأكد من مواليدهم في حال كان أحدهم قد بلغ العمر المطلوب لتأدية الخدمة الاحتياطية للجيش، وهذه الخدمة تفعل في الحالات التي يمر بها البلد في ظروف تستدعي النداء العاجل، ولحسن حظ أسير أنه تسرح من الخدمة الإلزامية قبل بدء الحرب، وعمره الآن يقارب ٣٠، أي أكبر من العمر المشروط للخدمة الاحتياطية بثلاث سنوات، لذا أخذ العسكري هويته ودفتره وتفحصهما لثواني، ثم رمقه بنظرة حقد وهو يعيدهما له.

ولا سيما أن القضية الشعبية التي كانت تتصدر لسان حال الشعب، هي قضية المعبر، سمي معبر بستان القصر، أو طريق الموت، وذلك

بسبب اعتباره الحد الفاصل الذي يقسم المناطق التي تقع تحت سيطرة النظام السوري عن المناطق التي تقع تحت سيطرة الجيش الحر، لذا على أي أحد يرغب بالمرور من مناطق سيطرة النظام السوري إلى مناطق سيطرة النظام الحر، أو العكس، ينبغي عليه أن يعبر هذا المعبر تحت طائلة مسؤوليته الخاصة، وذلك لحدوث فيه الكثير من الاشتباكات الدورية المكثفة من الطرفين، ومحاط بقناصين من عدة جهات يترصدون المكان من على منصات وأبنيه عالية.

فلذا كانت مدينة حلب في تلك الفترة تمر في حالة نقص شديد في المواد الغذائية الأساسية، لصعوبة التجار على مبادلة البضائع بين الضفتين، وتدهور شديد لمؤسسات التعليم لعدم قدرة الطلاب على الذهاب الى المدارس والجامعات، وعوز في الأدوات الطبية، وما إلى غيره في كل المجالات، لذا كانت قضية المعبر تترأس لسان حال الركاب في السرفيس، وهم يشتكون لبعضهم البعض عن الحصار اللا إنساني، والظروف القاسية التي يعيشونها بكثير من الهمس والحذر، لكيلا يصدف وجود متسلل أو مخبر أمني بينهما فيقوم بكتابة تقرير بهم، كان أسير وعائلته يعيشون في الضفة التي تقع تحت أيدي النظام السوري، باعتبار والد أسير عمود مهم من أعمدة الدولة، ومسؤولًا كبيرًا لدى

أجهزة النظام السوري، ومكان إقامتهم آمنًا من ناحية بعده عن نقطة الاشتباك، ولكن ككل المناطق الأخرى ليس آمنًا من الغارات الجوية، والقصف العشوائي المتبادل، والاقتحامات المفاجئة، والتفجيرات الانتحارية، وتفخيخ الألغام، والمطاردات. فكثير من هذه الأعمال تلحق بضحايا عديدة من المدنيين بمختلف أعمارهم، لا تستثني أحد، وقد شهد أسير كما الشعب مواقف عديدة، إما في الواقع الحي، أو على شاشات التلفاز، أو مواقع التواصل الاجتماعي، تركت فيه فجوات نفسية عن عبثية الحياة ولا جدواها، من وراء الشاشة يتابع هذه الأحداث، حدثًا وراء حدث، مدليًا بتحليلات شخصية، استمناءات فكرية، مع مرور الوقت يعتاد المرء تلك المشاهد المفزعة، فتخفف من درجة تعاطفه البشري أو تخدره كليًّا نتيجة انهيار الجهاز العصبي، بالرغم من هذا كله كان أسير متبنيًّا نوعًا من البذرة التفاؤلية بأن الوقت سيتكفل بمحي الذكريات الأليمة من رأسه، لولا تعرضه لموقف سمم بذرته التفاؤلية، ونبتت مكانها بذرة تشاؤمية، بذرة انتقامية، بذرة سوداوية، التصقت جذورها، وتشابكت أغصانها بقوة في تلابيب دماغه، سقيت بالصراعات والمؤثرات والتفاصيل الحياتية، فنمت وازدهرت باللاوعي، وسقطت أوراقها السوداء في الوعي، كهشيم

تذروه الرياح، وذلك عندما انتقل أسير من مجرد متابع لهذه الأحداث إلى حدث يتابعه العالم.

شهد بعين رأسه الدماء التي كانت تتدفق من رأس أخته الصغيرة، دماء تسيل من خصلات شعرها الحريري أثناء مطاردة لسيارة أبيه من قبل جماعة مسلحين، وانتهى الأمر بفقدان أخته الصغيرة بين أحضانه، وعلى وجهه تعتلي صدمة رهيبة، بدموع ثقيلة تُذْرَف بكتم مخنوق، بتشنجات صدرية غير مسموعة، بصرخات داخلية تأبى الخروج، تعثر في كلامه، تلعثم لسانه والتصق بسقف حلقه، بعدما تمكن أبيه من التخلص منهم، واعتقد بأنهم نجوا من الخطر، التفت إليهم بلهفة ليطمئن عليهم، فرأى ابنته بين يدي ابنه الجبان، قرأ أسير في نظراته لوم وتأنيب مصوب عليه، ربما لعدم قدرته على حمايتها، أو ربما كان يتمنى موته بدلًا منها، ومنذ ذلك الوقت، كل شيء قُلِبَ رأسًا على عقب، تحول الأب إلى شخصية أكثر قساوة وشراسة مما كان عليه سابقًا، ولم يكن يقتصر ذلك في أماكن شغله، ولكن جلب عدائية ووحشية عمله معه إلى المنزل، مما استحال العيش معه تحت سقف واحد أشبه بالعيش مع جلاد ظالم في زنزانة.

وبالنسبة للأم، كان العيش معها أكثر جحيمًا وعذابًا نفسيًّا، فقد تعززت الروحانية والمثالية والرحمة في شخصيتها، أصبحت أكثر تضحية مما كانت عليه سابقًا، وكأنها بواسطة ذلك تجلد نفسها، وتكفر عن خطاياها، أصبحت أكثر تدينًا وخفة، انسلخت كليًّا عن ماديتها، وكان الأمر أشبه بتبني لغة ميتافيزيقية تتواصل بواسطتها مع ابنتها المرحومة، لذا بات العيش معها تحت سقف واحد أشبه بالعيش في الجنة التي يدرك المرء بيقين أنه لا يستحقها، فكان الأمر بالنسبة لشخص مثل أسير مشبعًا بأفكار إلحادية وسوداوية، عذاب نفسي مزمن، انفصال تدريجي قاتم، فلا أسفل قدميه أرض يطأ عليها، ولا أعلى رأسه سقف يحتمي به، إنما هو هناك، في طيات مهمشة بالفضاء، يتعثر وينزلق ويتدهور في حضيض مظلم مخدر.

يقول العالم سيغموند فرويد: أن الإنسان الحديث جرح ثلاث جروح غائرة بليغة في كبريائه ونرجسيته، الطعنة الأولى حدثت على يد العالم كوبرنيكوس الذي نحى كوكب الأرض عن مركز الوجود إلى نقطة صغيرة سابحة في بحر الكون، الطعنة الثانية كانت على يد العالم الشهير داروين، الذي كان الإنسان يعتقد قبله أنه ينحدر من نسل الإله، وهو لا يتعدى عن كونه حيوان متطور بالدرجة وليس بالنوع، أما الطعنة الثالثة

فكانت على يد العالم فرويد نفسه، على وهم الاعتقاد البشري القائل بأنه يملك الإرادة والسيطرة الكاملتين على أفعاله وتصرفاته، في حين بيَّن أنها ليست تحت إشرافه ولا تحكمه، إنما مسؤولية الوعي الباطن الذي لا يدركه المرء وليس واعيًا به، أي مدفوع بغرائزه وحدها، فأصبح الإنسان الحديث كما وصفه الكاتب المصري عبد الوهاب المسيري:

– "ذاتًا مشتتةً، وعُرف على أنه مجموعة من الدوافع والحاجات ليس لها أي مضمون أخلاقي، كيانه مرتبطًا بأنماطه الاستهلاكية، أصبح ذو بعد أحادي واحد، عقل أداتي، شيئًا مجرد من القداسة والسمات الإنسانية، يمكن اختزاله في صيغ رياضية كمية، لذا لم يعد يعيش الإنسان في ثنائية فضفاضة بين التجربة الواقعية والتجربة الروحية".

أصبح كالآلة، ففي هذا النادي الإلحادي الحميمي الصغير الذي يقع في قبو داخلي، تتكتل فيه أتباع هذه النخب الثقافية المتحمسة ذوات الفكر التنويري المعارض للفلسفات التقليدية السائدة في المجتمع العربي، فمعظم الشباب والشابات الذين يأتون إلى هنا يجلبون معهم ثقافاتهم الموسيقية، والفلسفية، والعلمية، التي اقتبست معظمها من الأفكار والمفاهيم الغربية، فكان جوهر المواضيع التي كانت تُدار على

الطاولات، تُرد إلى عمالقة الفلاسفة الملحدين، وتسند فرضياتهم إلى مشاهير علماء الإلحاد، أي كانت الشخصيات المهيمنة على أجواء النادي هي الشخصيات المتشنجة فكريًّا، المتحمسة للظهور، الساخطة على المجتمع، الانتقاميون، السوداويون، الثوريون، هنا في هذا النادي يخلع الشباب أقنعتهم المفروضة عليهم اجتماعيًّا، وأخلاقيًّا ودينيًّا وسياسيًّا، متعريين من كل التقاليد العامة، ممارسين حقهم في العيش كما يعتقدون، وكان الشيء الثابت الذي يتشاركه جميع نواب هذا النادي مهما تنوعت آراءهم، واختلفت أهدافهم، أنهم لا يؤمنون بالغيبيَّات، أو بوجود قوة إلهية، أي من أتباع مقولة:

"الذي لا يرصد لا وجود له".

فكانت المادة بالنسبة لهم هي المرجع النهائي لكل شيء، فكان النادي يُذاع على أنه نادي إلحادي حتى النخاع.

كان الوصول إلى النادي من الشارع يحتاج الى عبور بابين، الأول خارجي يُفضي إلى ممر ضيق معتم بسبب انقطاعه من الكهرباء، يليه الباب الآخر الداخلي الذي ينفتح على النادي مباشرة، دلف أسير من الباب الخارجي بعدما تجنب كيس قمامة مرمي أمام الباب وحشرة تحوم

فوقه، التمس طريقه بالعتمة باتجاه الباب الداخلي، على ألحان أغنية بنك فلويد welcome to the machine، التي كانت تبث ألحانها من شريط النادي، بلغ الباب الآخر وفتحه، استقبلته سحابة كثيفة من الدخان التي كانت تتصاعد من أفواه المدخنين، ممزوجة بروائح كحولية عبقة، وإضاءة كئيبة ملائمة تمامًا مع الذوق الفني البسيط والحميمي المؤسس عليه ديكور النادي، بالإضافة إلى لوحات متعددة لفنانين، وكُتَّاب، وروائيين، وشعراء، وفرق موسيقية مختلفة، ألقى نظرة فاحصة سريعة على المكان، الوجوه كلها مألوفة بالنسبة له، فروَّاد النادي معروفين بين بعضهم البعض، إما من خلال صفحاتهم على السوشيال ميديا، أو أنهم من مداومي النادي، فكان وجه أسير مألوفًا لدى الجميع، بل ومعروفًا بالرغم من أنه ليس محبوبًا كثيرًا هناك، كونه شخصية غامضة وكتومة في أكثر الأحيان، باستثناء الحالة التي يغرق فيها نفسه بالكحول، حينها يسرف بالكلام ويطيل، مصحوبًا بشد عصبي وتوتر في كامل جسده، كونه مصابًا بعلة التلعثم، يعاني من صعوبة في التحدث، فيُتأتئ كثيرًا، ويحتاج المستمع إليه أحيانًا إلى تركيب الجمل بعد تفوهه بها، بسبب سرعتها واختلاطها وحدتها، وفي بعض الأحيان عندما تتراكم الأفكار في رأسه وتخذله السيالة العصبية، تراه يرتبك ويتشنج، فتأخذ هذه

الشحنة الدماغية المكبوتة سبيلها إلى منفذ آخر، منفذ أكثر سخرية وإثارة للضحك، كأن يخبط يده على الطاولة، أو يصرخ بطريقة مسرحية، وذات مرة قام برمي كأس البيرة على الحائط وكسرها، وعندما يصاب بهذه الحالة يمزج هذه التصرفات بطريقة فكاهية كي لا يتحول الى علكة في ألسنة النادي، لذا كان يقاوم في كثير من الأحيان التواصل البشري وحتى التواصل البصري، مما يساعده على تجنب الوقوع في ورطة اللغة، ولهذا السبب كان يتجنب توسيع دائرة معارفه، لأن هذا الأمر على الأرجح قد يشكل له إحراج ما.

لذا، اختار أو اضطر ملازمة طريق الوحدة، لغة تواصل ذاتية، والوقت الذي يقضيه هنا في النادي كان يجلس برفقة شخص يتشاركان المشروب ويسهران سويًّا، دون أن يكون بينهما أي تعريف حقيقي للصداقة.

حيث كان صديقه ذو شخصية نشطة ومرحة، صاحب مخيلة واسعة، طبعه ساخر وجريء، وأحيانًا ساخر إلى حد مزعج، ولكن كونه يتفوق بلغته الفلسفية والعلمية البليغة على كافة رواد النادي، يجعل من شخصيته الساخرة مثيرة لدى الجميع ومقنعة ونافذة حتى وإن كان

يرغي ويزبد، وكان يدرك حقًّا أنه مستحوذ على الانتباه من قبل رواد النادي، وبالأخص فتياته، وكان يغريه هذا ويثير غروره، ولكن ما كان يغريه أكثر هو فكرة إبداء اللا مبالاة نحوهم، فكرة استحالة بلوغه، فكرة محال اصطياده، فهو يفطن لتلك الهمسات والنظرات الموجهة عليه، ولكنه يمتلك قدرة عجيبة على إخفاء غروره خلف تواضعه، وربما لهذه الأسباب كان لا يجلس سوى برفقة أسير الكتوم والمثير للضحك أحيانًا، هذا ما يدفعه إلى لفت الانتباه والظهور بشكل أكبر، ويغذي زهوه الداخلي عبر مجالسته، رغم المستوى الفكري المتفاوت بينهما.

واليوم كان يجلس مع ضيفة جديدة، جديدة ليست فقط على أسير، إنما على جميع النادي، مما سبب بلبلة طفيفة لدى الفتيات خصيصًا، لأنها كانت فتاة غريبة وبالغة الجمال، بنحو العشرين من عمرها، نحيلة الخصر، دقيقة القوام، ذابلة الأعين، جريئة الطبع، واضح أنها تصطنع الإثارة والمرونة في حركاتها، بإمكان النظرة الخبيرة أن تخلص على الفور إلى أن الفتاة صاعدة متحمسة لكسر حواجزها التقليدية، وتقديم طلب الانتساب إلى العقول المثيرة والغامضة، ومثل أي حماسة شبابية أوَّلية تكون مغالاة وشطط، تفقدها الحكمة والاتزان، فتنطلي على شخصيتها

نوعًا من البلاهة والمغامرة، ولكن جمالها الصارخ الذي عبر عنه الروائي العظيم دوستويفسكي أبلغ تعبير بقوله "تبلغ من الجمال أن المرء لا يجرؤ أن يطيل النظر إليها كي لا يفتتن" أشبه بآلهة إغريقية، متلاعبة شهوانية.

كانت جالسة أمام صديق أسير، واسمه رافل، وهو يتحدث معها بأسلوبه الملفت إلى درجة جمد قسمات وجهها على صورة طفل بريء مدهوش، كان يمسك بكأس البيرة ويرشف منها رشفات متقطعة، ولكنها ليست رشفات عفوية يبلل من خلالها حلقه، إنما رشفات مدروسة يحكمها في الفقرات المشوقة في الحديث، بحيث يحكم رشفته قبل ما أن يبلل المستمع ريقه بالجواب، ذلك الوجه المشدوه المنتظر لما سوف يلفظه، يستلذه جدًا، دون أن تظهر عليه نوايا نرجسية، اقترب أسير من الطاولة وعلى ملامح وجهه يرتسم نوعًا من الضيق والفضول من الضيفة الجديدة، الذي كان رافل يتحسس أقراطها الجديدة بإصبعيه الموشوم عليهما، فسمع جبران قطفة من الحديث:

- لذلك خشية الإنسان من الطبيعة، من المجهول، من الماوراء، دفعته لابتداع فكرة الإله، لإشباع حاجات نفسية، الخلود، الأمان، الطمأنينة، فالإله مجرد إسقاطًا لتحقيق رغباتنا الجشعة والطفولية،

ولكن كما قال نيتشه: فالإله مات ونحن من قتلناه، والمؤلفات العلمية الحديثة شرعت في إثبات هذا.

قطع أسير الجلسة بتحية صامتة ومترددة برأسه، بالغ رافل بالترحيب به لدرجة أنه وقف وحط يديه على كتفي أسير ساخرًا، بالرغم من تحذير أسير الدائم بعدم لمسه، فأفلت يديه على إثر هزة تحذيرية من كتفي أسير، ورحب به بسخرية:

- هذا صديقي أسير على سبيل المثال، عيِّنة مثالية لصحة نظرية التطور، أمعني النظر جيدًا تلاحظين على الفور خلف قناعه البشري أنه أقرب ما يكون إلى الحيوان.

أخفى أسير انزعاجه خلف ضحكة حرجة غير مريحة، ثم رسم ابتسامة طفيفة للضيفة الجديدة سرعان ما تلاشت، ولا يزال واقفًا بسذاجة كقزم أمام جسد فارع الطول مفتول العضلات، فقال رافل مشيرًا بكلامه لصديقته التي تسمى مُشتهى:

- الأفضل أن تأتي إلى جانبي، لأنني لا أثق بهذا الكائن المهجن.

اصطبغت ملامح الشفقة والعتاب البريء على وجه مشتهى، أفرغت مكانها لأسير، والتصقت بجسد رافل، وهي تقول بلهجة رقيقة

ومتعاطفة بعد ما وجهت ضربة أنثوية تأديبية على كتف صديقها:

- ما رأيك أن تكبح تهكمك وحسك الفكاهي قليلًا، وتعرفني على صديقك ؟

وقد قصدت اختيار مفردتي تهكم والحس الفكاهي، لعلها تجاري فصاحة صديقها وتثير إعجابه.

ضحك رافل ضحكة خفيفة، ثم علق بانشراح سكير مشيرًا على أسير:

- أسير صديقي الغامض والوحيد في المشروب، psycho النادي

ثم مال نحو ضيفته بود:

- مُشتهى، مارلين مونرو العصر الحديث، ثورية وساخطة ومتمردة على نفوذ والدها المدرب النفسي العسكري.

تسائل أسير بواسطة ملامحه عن معنى هذا، فتابع كلامه:

- مدرب نفسي للعساكر يقوم على نوع من الترويض او التمرين النفسي ممن يعانون من اضطرابات، أي على سبيل المثال في حال تعرض أحدهما لصدمة نفسية بعد قتل أحدهما، يأتي المدرب النفسي ويقول له:

why do you even fucking care his just a human

مالت رأسها بليونة ورمقته بطرف عينها، دلالة على عدم التمادي، فتلملم رافل بانصياع لنظرتها، ومضى يمسح المكان بسرعة، ثم همس في أذنها بجدية بعد ما ساد نوع من الصمت:

- أسير أبكم.

تفحصت وجه رافل، بعدما تأملت أسير للحظة وهو يشغل سيجارته بحمق، وكأنها أدركت للتو بأنه بالفعل لم ينطق بأي حرف إلى الآن، فتنبأ أسير للهمس، فرمق صديقه رافل من وراء سحابة الدخان بنظرة امتعاض، فراحت مشتهى تستقرئ من عيني صديقها الجواب الفعلي، مضى ثواني قبل ما أن يكشف صديقها عن وجهه بضحكة سخيفة بسبب تصديقها للكذبة، قائلًا:

- I am just kidding

استاءت مشتهى من تماديه، ثم عاد وقال:

- ولكنه يتمنى هذا كل يوم.

سارعت مشتهى معارضته مغتاظة:

- لا أحد يتمنى ذلك.

تمتم هازئ خلف شفتيه الساخرتين، وثب من مكانه، مومئ لها لأن تفرغ له مساحة كي يمرق، وهو يعلن:

- ستكتشف هذا وحدك قريبًا.

تعثر بين ساقيها وهو يحاول المرور، دون أن يعير الانتباه لأسير المغتاظ منه، ثم تحجج في تعثره، فطفق وجهه يتبرم ملمحًا لها لأن تقف وتزيح له، تخطاها وهو يرد عليها بعدما قالت له:

- إلى أين؟

- ماضيًا لجلب المسكرات والمحرمات، بيرة، بيرة، بيرة (مشيرًا بإصبعه بأسلوب استعراضي نحو أسير ومشتهى(

وبعدما مضى خلف مشتهى بحيث لم تعد تراه، قام بغمز أسير وهو يومئ على مؤخرتها المغرية، ثم أخذ يرسم إشارة الصليب بتعبير منتصر، كلاعب حقق هدف على مرمى الخصم في آخر دقيقة، فانعكس على أسير نوعًا من الارتباك، وطفق يستنشق الدخان من بين إصبعي يديه اليسرى، واتسعت فجوة الصمت شيئًا فشيئًا بينهما إلى أن بدأت تنهال إلى مسامعهما حوار الطاولات المتاخمة لهم، وقد تجمع حولهما عدة

شبان وشابات تنطلي على هيئتهم الثورية نوعًا من الاستياء قائلين:

- سمعت مؤخرًا أن الخدمة الاحتياطية للجيش سوف تشمل حتى سن٣٣، أخي الأول قُنص والآخر بالتأكيد سيهرب قريبًا إن تأكد الخبر، وسأتحمل وحدي مسؤولية أبي المريض.

- بالأمس كان جالس بجانبي على كرسي الجامعة، بعد يوم أسمع خبر موته في مجزرة بستان القصر، منذ وقتها لم تفارق صورته خيالي.

- أنا أتساءل فقط أين الله من كل هذا؟

وشخص على طاولة أخرى مجاورة مسرف في الثمالة، يتحدث بصورة متهدجة:

- عندما كنت صغيرًا، كل ما كان يقلقني في الوجود هو إرضاء سبحانه، أحيانًا كنت أبلل فراشي ليلًا من شدة هلعي، لقد زرعوا أهلي بي رعب رهيب من جهنم، واليوم عندما أسترجع صورتي القديمة أضحك، وبحمد الله أني اُقتنعت أخيرًا بعدم وجود الله، وأقلعت عن هذه العادة السيئة، واستبدلتها بهذه (ملوح بكأس الفودكا(

وعلى طاولة أخرى فتاتين جالستين يوحي شكلهما على أنهما مثلي الجنس، لم يكن كلامهما واضحًا جيدًا.

صمت محرج تخلل الطاولة بعد ذهاب رافل، غموض عظيم يختبئ خلف هالة أسير، فضول يتراكم في نظرات مشتهى، كسرت فقاعته الصامتة؛ لترى ما يخبئه هناك خلف هذا الجسد البارد النحيل، متسائلة:

- وأنتَ؟ هل تؤمن بوجوده؟

تأمل سؤالها لبضع لحظات متحججة بالتفكير، بينما هو كان يحاول بنوع من القلق الجسدي أن ينطق رأيه بهدوء لكي لا يُحرج أمامها، خصيصًا بعد ما أحرجه رافل بتمهيد هذا العيب فيه:

- أأأؤمن بماذا؟

- بالإله؟

- أأ

تلعثم لسانه، بالكاد سمع شيء، تعلل بحلقه وأطفى السيجارة بنوع من الانفعال، وأخذ يسلك معابر حلقه، ثم عاد للكلام:

- أأ تتتمنى وجوده.

ردت عليه وقد اعتلت ملامحها نوعًا من الاستغراب:

- لماذا تتمنى وجوده؟

جاوبها بسرعة قبل ما أن تنهي سؤالها، وقد تقصد تقسيم الجواب لأكثر من شطر، ليتمكن من التحضير جيدًا، ثم وكأن لسانه قد سبق عقله وأخذ يسارع في الجواب:

- حتى أتتمكن من الانتقام ممنه.

لاحظت مشتهى قدر المشقة التي عاناها كي ينطق بالجواب، فشعرت بالاستياء مما مازحه إياه رافل بسبب هذه العلة، وشعرت بنوع من التعاطف والارتباك، وساءلت نفسها، ماذا يفضل؟ هل أتوقف عن الحديث كي أعفيه من هذا الجهد، أم أتابعه وكأن الأمر طبيعي؟

فجأة أتى صديقها حامل كؤوس البيرة وأسعفها من الموقف، مشيرًا لها أن تقف وتزيح له، وما إن وقفت كرر غمز أسير مما حققه من مؤخرة جميلة، وهو يقول:

- اسمعوا هذه النكتة، محشش سأل شيخ، لماذا حرم الله البير؟

مد أسير يده الملتفة بالشاش، ليأخذ منه البيرة، فجأة ارتسمت تعابير الدهشة على وجه رافل، وسحب البيرة للخلف قبل ما أن يمسكها، قائلًا:

- وات ذا فاك، إذا مفكر تعمل عرض آخر من عروضك

المسرحية ليوم، دعني أعبئها لك في كأس كرتون.

رد عليه أسير، وهو يومئ له بنفاذ صبر ليعيد له الكأس قائلًا:

- Ffuck you

ثم أخذ صديقه يسأله بنوع من الاهتمام الظاهر على وجهه:

- لا جد ماذا حدث؟

لوح أسير بيده وهو يكرع من كأس البيرة دليل على أن الموضوع لا يستحق القلق، ثم راح رافل يقلد حركة يده موجهًا كلامه نحو مشتهى:

- يقصد ب لا داعِ للقلق، مجرد حادثة عرضية، خنق أحدهم حتى جعله يلفظ الموت.

لم تضحك مشتهى على هذه النكتة بعد ما شعرت بالاستياء منه، كانت مشتهى بمجرد توقف صديقها على إلقاء الفكاهات حول أسير، تستعيد إثارتها وتستسلم كليًّا للانجذاب نحو حديثه وأسلوبه، كانت تستثار من مجرد سماع لغته العميقة، كان يستولي على انتباهها بشكل كامل، وفتنت بعلمه وبمعرفته وأسلوبه، وإن أردنا تصنيفها اليوم بمصطلح الحداثة فلا شك أنها تصنف من ضمن الأشخاص الذين

ينجذبون للعقول الحادة، وهي ظاهرة انتشرت حديثًا بين الأوساط العربية المثقفة، والجميع بدأ يتبناها كل على حدا، ويطلق على نفسه sapiosexuality، أو الانجذاب للأذكياء، أي أشبه بالقول أن العقل بالنسبة لهؤلاء هو أفحل عضو تناسلي، لذا قد تعتبر بضع مصطلحات علمية هي بمثابة مداعبة جنسية، بينما النقاشات الفلسفية أو العلمية أو النفسية الطويلة قد تجعلهم يتبللون على الأرجح.

فأخذ الحديث يدور فترة من الوقت مع الشرب المتواصل، دون أن تشهد السهرة أي مشاهد محرجة، وبعد ما بلغ منهم الخمر كل مبلغ، انصرف أسير راجعًا إلى بيته وعلائم السكر تلوح عليه، بينما عادت مشتهى مع صديقها إلى منزلها، فهي مقيمة هنا وحدها بغرض استكمال دراستها الجامعية، بينما عائلتها انتقلوا إلى العيش في مدينة اللاذقية منذ بدء الحرب، ولكن أباها يزورها بين وقت وآخر في شقتها المستأجرة، وذلك بحكم ظروف عمله التي تستوجب عليه التنقل بين المحافظات حسب نداء الحاجة الوطنية.

ترنح أسير عبر الأزقة المظلمة بعد ما تجاهل إشعار أمه على شاشة الموبايل، متحاشيًا الحواجز الأمنية المنتشرة في كل مكان، تهمس المدينة

بهدير محركات السيارات التي يتناهى عبر الشوارع العامة، أصوات اشتباكات بعيدة، غمغمة للحن موسيقي صادر من سلك سماعته المنسدلة من أذنه، استرخاء عقلي شبه مطفي أحسه بالرضى، لا تأنيب ولا تذمر يعكراه صفو ذهنه، سكون المدينة ملائم تمامًا لمزاجه، لا تفسده بلبلة الناس واعتلالاتهم، بالإضافة إلى ذلك، فرصة ليكسب مزيدًا من الوقت في طرد الكحول وتبعثر رائحتها، كي لا يقبض عليه من قبل أمه لمعاقرته الكحول، سوف يألمها معرفة ذلك كونها امرأة مسلمة وملتزمة بدينها، فلا داعِ لمزيد من القلق أكثر مما تعانيه من قلق بشأنه، في بعض الأحيان يتمنى رحيلها أو إبعادها، يخيل له أن هذا سيريحها ويخفف من قلقها، بالرغم من تعلقه الكبير بها، إلا أنه مستعد لمثل هكذا تضحية لأجل سكينتها، في الماضي قبل ما أن يتم تشكيل ما يسمى بالمعبر وتتقسم المناطق بين النظام والحر، كانت تذهب في زيارة لعدة أيام عند أهلها القاطنين الآن في الجهة الأخرى من المعبر عندما يشتد ضيق صدرها من المنزل، حيثما تهدأ قليلًا تعود، لكن لم يعد هذا الخيار مفتوحًا أمامها، بسبب صعوبة المرور إلى هناك، فلا أحد بإمكانه التنقل إلى الجهة الأخرى بغير احتمالية قنصه على الفور، إلا عبر اتفاقية تعقد من الطرفين ممن لديهم رتب أو مناصب رفيعة، عندها يتوفر مخارج سرية للعبور،

لذا، فهي عالقة مع ابنها الوحيد المتبقي لها، وزوجها الساخط، وبات منفذها الوحيد في هذا العالم هو الله، التقط هاتفه بطريقة من يحاول أن يكون واعيًا بينما هو يتعثر في قاع الكأس، وراح ينقر على الكيبورد، دقق فيما يكتب بينما أصابعه تخذله، مسح وعاد الكتابة ثم مسح مرة أخرى، إلى أن استقر أخيرًا إلى كتابة رسالة طمأنها وأنه لن يتأخر كثيرًا عن المنزل، كانت الرسالة الأخيرة الظاهرة على التطبيق.

فقت حبيبي؟ تعال إفطر.

بلغ العمارة، تعثر على الدرج، وعندما أوشك على الوصول إلى باب منزله في الطابق الأخير، غلبه الوهن، لهث ككلب جائع، تفطن لرائحة الكحول، فتابع صعوده نحو السطح، وهذا ما كان يفعله عادة عندما يعود في حالة سكر، كانت العمارة التي يقطن فيها عالية مقارنة بالأبنية المحيطة بها، تطل على فسحة أرض خالية أشبه بحقل زراعي تحولت إلى مقبرة، ترتفع عدة شجيرات في محيطها قطعت أخشابها لتدفئة غرف المبنى الأمني الذي يتصل بنهاية الحقل، دلف أسير من باب السطح فاستقبلته برودة لذيذة اقشعر على إثرها بدنه، استند على حافة السطح وأشعل سيجارة، وحدق صوب العتمة التي تغلف المقبرة، باستثناء

إشعاعات ضئيلة ساقطة من الخط العسكري في غرف المبنى الأمني، ومضات رصاص تسطع على مدى الأفق، فجأة تناهت تمتمات غامضة صادرة من مشغل موسيقي، ميز عقله على الفور ماهية هذه التمتمات، لم تكن غريبة على سمعه، كانت تتلى سور قرآنية، أدركها من إيقاعها، تفحص المكان بغباوة محاولًا معرفة اتجاه الصوت، حدق باتجاه الغرفة المعمرة في ركن سطح العمارة، والتي تعود لملك أحد الجيران، بناها كغرفة ثانوية للأغراض العتيقة، وقد استخدمها بعد ذلك أحد أبنائه للدراسة فيها بعد ما ألحقها بمنافع متواضعة، وقد هجرها بعد ذلك بغرض السفر، ومنذ ذلك الحين استعملت كمستودع صغير مهجور.

حدق أسير صوب النافذة الصغيرة على جدار الغرفة، كانت إنارة شمعية طفيفة تعكس جسد امرأة نحت على ستارة شفافة، ظلال يدها تتحرك حركات عشوائية تظهر وكأنها تلوح له، وتريد أن تخبره بواسطتها شيء ما، أسند مؤخرته على حافة السطح وثبت بصره بالمشهد كمخرج حالم، لم يكن خائفًا، لم يكن يؤمن بالخرافات والأشباح، يبدو أن عقله الثمل يقوم بتأويل المشهد كتجربة ماورائية يخوضها بكل إدراكه، يستنبط الرسالة الجوهرية من تحركات فنية قادمة من بعد فيزيائي خارج إطار التجربة البشرية، لبث على هذه الحالة عدة دقائق بنوع من التخاطر،

فتجاوز خياليه أبعاد المشهد الواقعي، بنى لغة رمزية استخلص من خلالها الكثير من المعاني الذاتية القادرة على تفسير هذه الظاهرة الغريبة وأسقطها على المشهد، وبتضامن الخلفية القرآنية، خلص إلى أنه يختبر تجربة صوفية رفيعة المستوى، أخرج القداحة من جيبه وأشعل سيجارة أخرى، ولكن الهواء سارع إلى إطفاء النار، حاول عدة محاولات، ولكن عبث، التف بعكس تيار الهواء وأحنى رأسه وغطى بيده مصدر الهواء وبعد عدة محاولات اشتعلت السيجارة، وبينما كان يعيد القداحة إلى جيبه، فتح باب الغرفة فجأة وأصدر صريرًا، ارتعد جسد أسير وصرخ قائلًا:

-Fuck

وعندما رأى الفتاة الواقفة عند عتبة الباب تنظر نحوه بريبة، أغمض عينيه وزفر بنوع من الارتياح، قائلًا لها بتلقائية واضحة دون أن يعير الأهمية للتأتأة التي سوف تفكك جملته:

- أأنت حقيقية؟ أأعتقدت أنني أخوض تتتجربة مممميتافيزيقية.

كانت الفتاة واقفة على عتبة الباب ممسكة في يدها فلاش الكتروني مُطفأ، ومن خلفها تتراقص لمعان الشمعة في أرجاء الغرفة، تارة تظهر

لوحة ممزوجة بألوان فاقعة معلقة على إطار خشبي، وتارة أخرى تغرق الغرفة في ظلام دامس نتيجة تسرب الهواء، في قرص السماء ضوء محمل بشعاع باهتًا يعكس قدر بسيط من شكلها الخارجي، بحيث تبين لأسير أن ما كانت ترتديه الفتاة هو أشبه ما يكون بأسمال غجرية فضفاضة، وعلى رأسها شال يغطي شعرها، وقد لف بعبثية واضحة، ثم راحت الفتاة تشغل الفلاش الالكتروني ووجهته نحو وجهه، سقط الضوء عليه، غطى وجهه بانزعاج، فانتابتها راحة عندما تعرفت على هويته، أطفأت الفلاش قائلة بسذاجة طفل:

- ماذا يعني ميتافيزيقية؟

انفلت تأوه ساخر من فمه، قائلًا بتهكم:

- أووووه، لا تتتعرفي ممعناها! الظاهر أنك عينة بشرية نادرة.

بينما راحت الفتاة توجه إضاءة الفلاش نحو الأرض، بعثرت إضاءة خفيفة على السطح، وعقبت قائلة بلحن بسيط:

- انا روح طالبة مستأجرة جديدة في المبنى، لذلك اعذرني على قلقي، أنت من سكان العمارة، صحيح؟ أعتقد أنني لمحتك مساءً نازلًا على سلم الدرج.

راح يتفحص وجهها متظاهرًا بعملية التذكر، ثم أخذ يدرك شيئًا فشيئًا ملامح بسيطة عن لقائه بها على قرص الدرج، ثم قال بشيء من التأكيد على كلامها وهو يتلوى في مكانه:

- نعم، نعم، ججارك في الطابق الأخير، ووغرفتي تقع تتتحت غرفتك ببالضبط، واسمي أأأسير.

- ماذا تفعل هنا في هذا الوقت المتأخر؟ تتفقد خزان الماء، أم ستنتحر؟

انفرجت شفتاه عن ضحكة خفيفة، رفع سيجارته للأعلى قليلًا بأسلوب مسرحي، ثم تفوه:

- سسيجارة الوودداع، ببعد السيجارة إن شششاء الله سسسأنتحر.

ولا سيما أن أسير أثناء المحادثة لم يكن يكترث بعلته اللغوية، ولم يفكر كعادته بالجملة التي سوف يلفظها، بالرغم من أنها تخرج مفككة وأكثر تلقائية، ارتسمت ابتسامة ظريفة على شفتيها، ثم خطت نحوه بشيء من العفوية، والإضاءة الشمعية الحمراء من ورائها تتأرجح من داخل الغرفة، قالت بينما كانت تقترب:

- شكلها سكنة موفقة من البداية.

- ممكن أن تطططفئي القرآن، يككفي أنني سسوف أأأسمعه ببعد قليل شخصيًا منه سسبحانه.

ابتسمت دلالة على الموافقة وعادت تطفئ الشريط، وبينما كانت في الداخل، صاحت:

- الهيئة أنك لا تؤمن بالله؟

- أككيد لا أأأؤمن به، صار عمري ٣٠ سسسنة.

أطفأت الشريط القرآني، وصاحت به مرة أخرى بنوع من الحماس:

- هل تريد أن تسمع شيئًا آخر؟

- مثل مماذا؟

- سورة النور، سورة النساء، سورة ال..

- ييفضل أأأن يكون شششيء مصدره ببشري.

سمعها تضحك من الداخل، ثم قالت:

- لا نبيع هنا أشياء مصدرها بشري.

ترجلت نحوه ثانيةً، وقد تناهى إلى مسامعه تلاوات خافضة، قدم

لها سيجارة، رفضت قائلة: لا أُدخن، وقفا على حافة السطح وأسندا مرفقهما، وحدَّقا باتجاه العتمة التي تغلف السماء، ورائحة الكحول الممزوجة مع دخان السيجارة يلحفها.

سألها وهو يرفع رأسه للأعلى:

- هل حقًّا تتؤمنين بالله؟ أقصد هل ففعلًا، ففعلًا، فعلا، تتؤمنين ببوجوده؟

حدقت مثله في السماء، وقالت:

- نعم أؤمن وأشعر به.

ضحك بنوع من التعالي على ثقتها، استجمع قواه، ولملم شتات ذهنه الغارق في الكحول، ثم عقب بزهو أحمق:

- هذا للأنك خائفة ممن المجهول، فكرة الإله أأساسًا اخختراع ببشري، ابببتدعها الإنسان لتتحقيق رغبة في الخلود، ننيتشه أأعلن أن الإله قد مات، وونحن من قتلناه.

ارتسمت تعابير الاستفهام على استرساله، حدقت به متسائلة.

ضحك مرة أخرى، ثم تابع بعد ما حزقا جراء الكحول:

- ككلامك هذا لا يثبت شيء، العلماء همهم من يشثبتون.

كانت جملته مفككة وغير مفهومة، ولا يدري لماذا ومن أين جاء بهذا، إعتقد أنه بهذه الحجج سوف يقضي على إيمانها، ردت عليه بنبرة هادئة بسيطة:

- أنا لا أريد أن أثبت لك شيء هنا، وليس لدي أي براهين ولا معادلات أستعرضها لك، فقط ببساطة أشعر بوجوده في كل شيء، هذا كل ما في الأمر، سألتني وقد جاوبت.

- ببماذا تتشعرين ببالضبط؟

تنهدت، شهقت وزفرت، تأملت السماء قليلًا، كانت حدقة عينها الخضراء تعكس شعاع القمر الشفقي، تمتمت ببراءة مطبقة فمها، إشارة على التفكير، أخيرًا قالت بسذاجة:

- أشعر ممم، كيف أصف لك هذا، لست بارعة في التعبير، ولكن سأحاول، أشعر بشيء موجود، ولكنه غير ملموس، اقصد بهذا، مثل ممم شيء ما، أي شيء، أعتبر أنه موجود في باطن هذا الكون، أو في أعمق نقطة في أنفسنا، لا تضحك، لا تضحك دعني أكمل، قلت لك لا أعرف كيف أُعبر عن هذا.

- تابعي، تابعي، لن أأضحك.

- ما كنت أقصده أن هذا الغيب الموجود في أعمق نقطة بالعالم، ولن يتمكن أحد يومًا من بلوغه، لا أحد نهائيًّا مهما بلغ العلم مبلغه، ولكن ما يمكنك فعله أو ملاحظته في كل مكان وزمان دون استثناء هو أن تستشعر أو تستدل على هذا الغيب من خلال آثاره التي يخلفها هذا الشيء، وليس من خلال بلوغ الشيء بحد ذاته، فأنا أشعر بآثار الله في كل مكان، أي أشعر به بواسطة كل شيء، خذ أبسط شيء في هذا العالم، تأمله جيدًا وابحث فيه، سترى العجب فيه، لذا لن أتمكن من الاختباء وراء إصبعي أمام حقيقة ما فطرت عليه، ربما إن تعرضت لمشكلة نفسية منذ الصغر، أو صدمة ما في الحرب، أو أنني أُعاني اضطراب ما، أو أصطنع اضطرابه للفت الانتباه كالنرجسية على سبيل المثال، حينها طبيعي سأتكبر على الحقيقة، وعلى فطرتي، وعلى كل شيء، أنا في اعتقادي البسيط أن الحاجز الوحيد الذي يفصل الإنسان عن الله، ليس المنطق، ولا العلم، ولا الفلسفة، إنما هي قضية نفسية في العمق.

كان أسير يهز رأسه متظاهرًا بالاهتمام لحديثها، حدقت نحوه بعدما انتهت من سردها، قالت له:

- أعلم أنك تخفي ضحكتك، اضحك، اضحك، سأسمح لك.

انفجر أسير بضحكة مبالغ بها، التبكت وابتسمت وسارعت بالقول:

- الجيران، الجيران.

استحالت تعابيره إلى قسمات جدية ثم قال:

- تعلمي مماذا؟ أأأقنعتني بككلامك سسسوف أؤمن به مثلك.

- لا تسخر.

- لا لا أأأتكلم ججادًا.

- هل حقيقي هذا؟

- نعم حقيقي.

سكتا قليلًا ثم عقب.

- حتى ألقاه وأتمكن من الانتقام منه.

عاد وضحك مرة أخرى بصوت مجلجل، انطوت على نفسها غاضبة بعدما أشارت له أن يخفض من صوته، ذعن لإشارتها، عبرت عن امتعاضها قائلة:

- إسخر مهما شئت، فأنا أؤمن بالله، وأحتاج اليه، وأنت تحتاجه، والعالم كله يحتاج الله، كل ما في الأمر أن الأولويات انقلبت، وأصبح العالم مؤخرًا متكبرًا ومغرورًا ومهووسًا في إثبات ذاته وتفرده.

أومأ لها أسير ساخرًا، ثم قال لها:

- أأحكي لك ننكتتة؟

- احكي لي

- ففضي ممحشش سسسكران سأل شيخ.

قطع سرد أسير بشعور مفاجئ بالتقيؤ وعدم الراحة، لاحظت عليه، قطع كلامه، ثم غرقا في العتمة الباردة مصغيان إلى صمت الليل.

مضى وقت غير معروف، استدارت وجلبت بطانية وفرشتها على أرضية السطح، بعد ما أحست بأن أسير شرع يتلوى، وتخمد قواه العضلية جراء انسحاب الكحول، صاحت به وأشارت له بأن يتمدد ويستريح قليلًا فوق البطانية، كانت خطواته بين حافة السطح والبطانية خطوات منكسرة ومهزومة، ولفت ملامح وجهه بظلمة داكنة لا قرار لها، وانسحب لسانه وانطوى خلف شفتيه المطبقتين، هيئته شديدة الكآبة، وحركته مثيرة للشفقة توحي بكائن ضعيف يفيض منه الحزن

والألم، ربما لو ارتمى بين أحضان أحدهما في ذلك الوقت لرأيناه ينتحب ويجهش بالبكاء كوليدٍ جديدٍ، حتى أن روح، الفتاة اجتاحتها رغبة عنيفة في ضمه وأن تقول له كل شيء سيكون على ما يرام، ارتمى على البطانية، بعد ما حاولت أن تسانده من يده الملفوفة بالشاش، امتنع عن مساعدتها، وتسطح على ظهره، وحدَّق نحو الماضي، نحو السماء، على تلاوات خفيفة تبث من غرفتها.

تسطحت بجانبه، وبنفس الوضعية حدَّقت نحو السماء، صامتين وساكنين، مضى على ذلك وقت وفير، تناهت أصوات مآذن الجوامع بالتحضير لصلاة الفجر، صرصرت خزانات الماء، مالت نحوه لتلقي نظرة عليه، كان مغمض العين، ترددت في إيقاظه بدايةً، تأملته لحظات، ثم راحت تهمس باسمه، لا جواب، مررت يدها فوق يده الجريحة، وعادت تهمس باسمه مرات ومرات، إلى أن بدأت أهدابه ترفرف، استيقظ بهدوء، ونظر نحوها بشيء من الغرابة والغموض، أخذ عقله شيئًا فشيئًا يستعيد الأحداث، فأدرك أين هو، ابتسمت له كما تبتسم زوجة لزوجها في أول صباح لهما، همست بهدوء:

- طلع الفجر.

مرر يديه على رأسه، صداع الكحول، عدَّل من وضعيته، وقف، تفقد أغراضه في جيبه، قدمت له علكة بطعم النعناع، ثم نزل على الدرج، وفتح باب منزله، كانت أمه في الحمام تستعد لصلاة الفجر، انسل إلى غرفته، لمح الدماء المطلية على منشفته، خلع ملابسه وارتمى على الفراش وسقط في النوم، بينما راحت روح تلملم بطانيتها، ولجت إلى غرفتها، ونامت.

بعد ظهر اليوم التالي استيقظ أسير من نوم طويل على أصوات اشتباكات تدور قريبة فوق سماء الحي، تململ في فراشه دون أن يشعر بأي نوع من القلق والفزع، فقد طور على مدار فترة الحرب مناعة تحميه من ضوضاء الحرب وضجيجها، وبات الأمر مؤخرًا بالنسبة له ولمعظم سكان المدينة كمأساة حتمية مألوفة لا مناص منها، ولم تعد توقظ فيهم أي إحساس بالدهشة والرعب ما لم يقع شيء جديد غير مدروج في شفرتهم المناعية، ورد الفعل الوحيد الذي كان الشعب يواجه فيه هذا الخطر المعتاد هو أدعية شكلية تتردد عبر أفواههم نحو السماء: الله يحمينا.

بينما رد فعل أسير لم يكن يستند إلى أي قوة خارقة، إنما إلى قاعدة

كونية صارمة لا تأبه به ولا لرغبته، فإن كان سيحدث شيء تراجيدي، فإنه سيحدث، فلن تشكل أدعيته أي فرق إعجازي، وليس بمقدوره حتى وإن كان إمامًا جليلًا أن يوقف عجلة الكون الهمجية التي سوف تدعسه وتدعس العالم أجمعين، فليكن ما يكن، هذا هو شعاره الذي يردده دائمًا، فالفلسفة التي كان يتبناها في أسلوب حياته لا تقدم له أدنى دافعًا في تغيير مسار حياته، وعليه أن يتكيف مع الوضع، ويتعامل معه كما هو، وكلما ساء الأمر تزداد برودته؛ لتحتمل هذه الفظائع، فهو أشبه ببالون مطاطي كلما حشرت بمؤثرات خارجية توسع محيطها، وتمدد كما يتمدد الكون.

التقط هاتفه وسماعته على الفور، تفحص حساباته على السوشيال ميديا، قلب في آخر الأخبار، أعجب بعدة منشورات، دقق في صور شخصية نشرت على حسابات أصدقاءه البنات، وقلب في صورهن، إشعار في طلبات الصداقة، طلب صداقة من مشتهى، نقب في صفحتها ثم قبل الطلب، انتقل إلى الرسائل غير مقروءة، قرأها:

فقت ابني؟ تعال إفطار معي.

عدَّل جلسته، عاين جرحه، عاود لف الشاش مرة أخرى، التمعت

أحداث البارحة في أجزاء من الثانية، ثم خطى باتجاه غرفة المعيشة.

ارتمى على منضدة أمام التلفاز الذي كان يبث خبر عاجل مضمونه أن القوات الإرهابية ترتكب جرائم جديدة في حق المدنيين، وقد تصدت القوات السورية عدة محاولات اقتحام، وألحقت بصفوفهم مقتل عدة جنود إرهابية، قلب على قنوات أخرى كانت تبث ذات المحتوى التي تعلن تفوق القوات السورية على القوات الإرهابية، بعكس ما شاهده قبل قليل على صفحات إخبارية بإحراز تقدمًا هائلًا للجيش الحر على الجيش السوري، وذلك بالاستيلاء على مناطق جديدة كانت تحت سيطرة النظام السوري، ولكن القنوات المفتوحة التي كان يسمح بها هي فقط القنوات المؤيدة للجيش السوري، وقد شُفِّرت كافة القنوات من قِبَل الأب التي تطرح أي أفكار أو أخبار تعارض الحكومة السورية.

لمح الصورة الموضوعة بجانب التلفاز في إطار مزين بسيط، كانت لعائلة أسير تعود لسنوات طويلة مضت، كان واقفًا فيها بجسده الضئيل، وعلى كتفه تمددت يدا أمه المبتسمة خلفه، وبجانبه والده منتصب بملامح متجهمة، ويحمل بين يديه ابنته الصغيرة، ومن وراءهما ينبسط بحر اللاذقية، سائل نفسه بتعجب: متى آخر مرة رأى ضحكة

مرسومة على وجه أبيه؟! لم يتذكر ذلك، وقد التقطت هذه الصورة عنوة من قبل فرد العائلة الثالث، وهو الولد البكر، وقد هاجر خارج البلد، وكانت صورته الشخصية الموضوعة في إطار آخر على الجهة الأخرى من الصورة، يظهر فيها وحده، تردد صوت أمه التي كانت تستمع على تلاوات للقرآن، قائلة:

- صباح الخير حبيبي، ضحيت بالنومة، لم أرد أن أوقظك.
- صصصباح الخيرات، تتتأخرت قليلًا أأأمس عند رررفيقي.
- لاحظت ذلك، جائع، أحضر لك فطور؟
- لا أمي، اررتاحي إنتِ، وأنا سسسأحضر بنفسي ببعد قليل.
- لا ارتاح إنتَ، سوف أحضر فطور وأفطر معك، لا زلت بلا فطور أنا أيضًا.

اتجهت صوب المطبخ ثم صاحت به:

- كيف أصبحت يدك؟
- تتتمام لا تتتقلقي نفسك.

سكتا قليلًا، ثم عادت وصاحت مرة أخرى:

- هل تسمع الضرب؟ مستمر هكذا منذ مطلع الفجر، الله يحمينا ويحمي الجميع يا رب.

حك رأسه جبران، وعقب على مضض:

- آمين.

ثم عادت وأكملت حديثها:

- والله يا ابني أنا غير مطمئنة، اليوم استيقظت على صلاة الفجر ولم أستطع النوم بعد ذلك، قلبي غير مطمئن.

- للماذا، هل حدث شيء؟

- والله لا أعرف يا ابني، حلمت بكم اليوم، واستيقظت وثقل على صدري.

رد عليها:

- بماذا حلمتِ؟

- والله يا ابني، أشياء متشابكة، حلمت بأختك الله يرحمها يا رب، تنفخ بالونًا وتعطيك إياه لتفرغ هواءه في وجهها، فتضحك هي وأنت تلاعبها، بعدين فجأة أرى والدك يتدخل بالمنام، ويريد أن يتحدث

معك ولكن لا يستطيع، قال يا ابني شفتاه مخيطتين، ثم يحدث شيئًا غريبًا يا ابني، شيء مثل السحر، ينتفخ البالون بين يديك، ينتفخ جدًّا، تفقد السيطرة عليه، فيبلعك تدريجيًّا ويطير بك، تفزع يا ابني، تفزع جدًّا، تضربه من الداخل، تحاول الفكاك منه، تصرخ عليَّ، وتقلي يا ماما، ويا ماما، أكون واقفة لابسة عباءة بيضاء، والدموع تغرقني غرق يا ابني، وأخوك بجانبي مكبل اليدين، فجأة يا أمي شي مثل الفيلم، ينفجر بك البالون في السماء، يتطاير رمادك، يتهاوى كالمطر، بعدين بشوف فتاة غريبة كأنها ملائكة يا ابني، تكنس رمادك وتجمعه في كيس، وترميه على ظهرها، تهمس في أذني شيئًا، شيء مثل الخيال يا ماما، فيلم يا ماما فيلم، فقت محروق قلبي، إن شاء الله خير يا ماما إن شاء الله، الله يحميكن.

عادت أمه وسفرة الأكل بين يديها، باللحظة التي انتهت فيه من سرد المنام، أخذ عنها الصينية، وقال مظهرًا الاهتمام لحديثها:

- فيلم هاد مماما ليس ححلم، يلا إن ششاء الله خخخير.
- إن شاء الله يا ابني، إن شاء الله.

بدءا بتناول الطعام، ثم قالت أمه بنوع من الشفقة:

- أنا أعلم أنك غاضب من أبيك، وربما تكرهه، وليس لدي شيء

أقوله لك في هذا الشأن أكثر مما هو واضح لكلانا، ولكن أنا أعلم علم اليقين أنه يحبكم، يحبكم جدًّا، ولا أقول هذا لأبرر له أفعاله، لديك الحق الكامل بكل ما تشعر به، ولا أدري لِمَا أقول هذا الكلام الآن، أباك يا ابني لا يعرف كيف يحب، وعندما يحب يغضب، يغضب جدًّا في أي موقف يضطره إلى استعمال عاطفة ما، أنا أعرفه، ولست مضطر أنت لتتحمل هذا، ولكن تأكد من أمك يا ابني لن يضيع حق أحد في هذا العالم ما دام الله العادل معنا ويرى كل شيء، ثق به.

أومأ برأسه بنوع من التعاطف، بعد ما خطف نظرة سريعة على وجهها الحزين وهي تبلع لقمتها، ثم قال لها:

- أهم ششيء أنتِ لا تقلقي بشأأني، أنا ببخير، وسأكون ببخير.

هزت رأسها مبتسمة قائلة:

- الله يرضى عليك يا ابني ويحميك.

سحبت من عباءة صلاتها مبلغ من المال، وقدمته له، قائلة:

- اترك هذا المال معك.

- ففي الأمس أأأعطيتني، لا دداعِ لهم.

أصرت عليه إلى أن أخذهم، وكان المبلغ أكثر من كل مرة، استغرب نوعًا ما، ووضع المال في جيبه، قائلًا:

- شكرًا.

وقبل ما أن يحمل نفسه إلى سريره، قالت له وهو يحمل صينية الطعام إلى المطبخ:

- جرب أن تنظر إلى أباك جيدًا، عندما يُدرك أنه وحده ولا يُرى من أحد.

التقط رواية موضوعة على رف رص فوق سرير أخيه الممتد على الجانب الآخر من سريره، تعود للكاتب الإنكليزي جورج أورويل ١٩٨٤، قلب بصفحاتها سريعًا، وقد التمع في رأسه ذكرى أخيه، وهو متكئ على دفته يقرأ في كتابه، وقد كان ذلك قبل مدة قصيرة من مشاجرته الأخيرة مع الأب قبل ما أن يترك البيت لعدة أيام، ثم يهاجر خارج البلد، وقد حدث ذلك منذ بدايات اندلاع الأحداث لسورية، بحيث أيقظت الأحداث انتفاضة هائلة في نفس أخيه، وجعلته متمردًا وهائجًا أكثر مما كان عليه سابقًا، مما نتج الكثير من الخلافات التي كانت تتصاعد يوم بعد يوم بينه وبين الأب، واتخذت المشاجرات طابع عداوة

وتحديًا ظاهرين من الطرفين، وذلك لاختلاف وجهات الرأي فيما يتعلق بقضية الثورة، واستمر ذلك عدة شهور في محاولة كل منهما إثبات صحة قوله للآخر، ثم تطورت اختلافات وجهات النظر إلى مشاكسات ومعاكسات امتدت إلى خارج القضية المعنية، وبسبب ما كان يتمتع به والده من شخصية صارمة تكونت على مدار سنوات من عمله في أحد فروع المخابرات السورية، اعتبر تلك المعارضات إهانة له وتقليل من احترامه، فلا يتجرأ أحد خرق قوانينه أو معارضته، وإلا سيلقى جزاءه كأي جند من جنوده، لدرجة أنه أجبر ولديه على أن يؤديان الخدمة العسكرية قبل ما أن يلتحقا بالجامعة، ربما فعل هذا ليصقل ولاءه لدى السلطة وترقي مراتبه، ولكنه تذرَّع بحجة أنه يعرف مصلحتهما، ولا ينبغي عليهما معارضته، ثم نشبت الأحداث التي أضرمت الشرارة الأولى للقنبلة المكبوتة التي كانت تعتمل داخل الأخ، ولقى في ذلك أخيرًا حجة قوية في مواجهة والده على الظلم الذي يُرتكب بحق المتظاهرين من قبل جيشه، وقد اعتبر هذه القضية أكبر من أن يسكت عنها، حملته تلك الفكرة الثورية على أن يواجه خوفه الذي صنعه والده فيه منذ أن كان طفلًا، وراح يخطط ويشارك في المظاهرات السلمية التي تقام في الساحات العامة، وربما كان يفعل هذا بحماس ظاهر لإغاظة

والده أكثر مما هو واجب وطني، وهذا ما كان يثير جنون والده بشدة، فيعلو زعيقهما في أرجاء البيت، ولولا الأم وأسير اللذان يقفان حائلان بينهما لنمت الصراخات إلى ضرب باليد.

وفي إحدى المرات، والتي كانت المشاجرة الأخيرة بينهما قد تطورت فعلًا إلى ضرب باليد، عندما اعترضت قوات الجيش مظاهرة كان مشارك فيها بقنابل غازية ورصاص ناري، هجموا على المتظاهرين، انهالوا بالضرب على صديقه، ثم اعتقلوه أمام عينه، عاد إلى البيت مشحونًا، فاعترضه أبوه في البيت، ثم نشبت المشاجرة الأخيرة، عندما قال بمعنى أن جماعته قد اعتقلت صديقه ظلمًا، وقد رد عليه والده ببرود: وهل كنت تتوقع غير هذا؟، وبين قيل وقال بينهما، قال الأخ: عليك أن تكلم أحد وتخرجه من السجن، رفض كلامه، وسخر منه، فرد عليه الأخ، بما يشبه بأنه مجرم وظالم مثلهم، فأثيرت ثائرة والده، وهجم عليه وقام بضربه، ثم وقف وتنهد وحدق نحو ابنه مرتجفًا، وقد بانت على وجه الأب نوع من الشفقة الضامرة وراء ملامحه القاسية، وكأنه يقول لنفسه ما الذي أفعله؟

ركضت الأم ومسكت ذراعيه، وسحبت ابنها إلى الغرفة، وضب

أغراضه في حقيبة، وبين تبادل عبارات التهدئة من أسير والأم، صرخ بجنون قائلًا:

- لا أحد يحاول أن يعدل من رأيي، عزمت قراري، سأهجر البيت، إذا بقيت هنا سوف أندم، ستندمون جميعكم، إذا بقيت هنا لحظة أخرى سأتحول وأصبح مثله، ولا أريد أن أصير مثله.

حمل حقيبته وخرج من البيت، بعد ما ألقى نظرة عابرة أخيرة على والده، بقي عدة أيام يتنقل بين بيوت أصدقاؤه، إلى أن هرب أخيرًا عبر سفينة بحرية خارج البلد، بمساعدة مالية من بعض الأصدقاء، وحدث كل هذا قبل وفاة الأخت.

وضع الكتاب جانبًا على إثر رعشة طفيفة في جسده جراء القصف المستمر الذي يقترب تارة ويبتعد تارة أخرى، دفعته الى لفظ كلمة:

فاك.

حمل هاتفه وراح يتصفحه بعض الوقت، ثم انسل تحت فراشه واضعًا سماعاته على أذنه، وانغمس في عالم البورن لمدة كافية بوسعها أن تعزله عن محيطه، أزاحت عادة الاستمناء عن عاتقه شعورًا بالواجب والمسؤولية، بامتصاص شرس لطاقاته وجهوده، وعملت على فتور

عواطفه، فأُصيب بنوع من الخدر واللامبالاة وقلة التعاطف، وقد خصصت نفسها كجزء رئيسي من يومه، مرة أو مرتين، وربما ثلاثة مرات في اليوم، وحتى عندما يكون خارج البيت تلح عليه إلحاحًا قويًّا، وفي بعض الأحيان لا يجد سبيل للنوم دون أن يفرغ خصيتيه، فلم يحاول يومًا أن يقلع عنها، ربما لو حاول لاكتشف أنه غارقًا في إدمانها، وإدمانها حسب الأبحاث العلمية الحديثة ربما يكون أخطر من إدمان المخدرات، وربما قد تكون عاملًا من عوامل أساسية قد ساهمت في تشكيل رؤيته المتشائمة للحياة، أو ربما قد تكون عائقًا في تجاوز هذا التشاؤم، كونها تستهلك دماغه كليًّا، وتمنعه من الاستمتاع بالأنشطة الطبيعية.

مضى وقتًا كافيًا يتنقل بين صفحة وأخرى، شحن جسده وارتفعت حرارته وانحسر الدم في قضيبه، وقرر أخيرًا ما سيختاره كعادته المعهودة مقطعًا ساديًّا، يسرد قصة مبتذلة لامرأة شهوانية تحدق بنوع من الرفض المستحب يهيج الرجل المستلقي فوقها، يضاجعها بشراسة عمياء وصماء، تستمر المرأة في إرسال رسائل مغرية بواسطة عينيها النهمتين، فتبعث به نوع من الإثارة الحيوانية، فيأخذ بتعنيفها وصفعها لتخضع لذكوريته البدائية، ترمقه بنظرات حادة راضية، يضع يده على عنقها ويضاجعها بقوة أكبر، حابسًا الهواء تدريجيًّا عن عنقها، ينتشي

ويرتمي فوقها، ينتهي المقطع.

هذه النوعية تثيره وتفقده صوابه، وقبل بلوغه النشوة سمع صوت والده بواسطة السماعة المعطلة، تجاهله واعتقد أنه توهم ذلك، عاد الصوت بشكل واضح يشير إلى مشاجرة أخرى بين والديه، بداية حاول أن يتجاهل ذلك بتأفف، ولكن صوت أمه تردد صداه بحزن داخله أعاق عمليته، امتعض وجهه واضطرب، أغلق الهاتف على مضض ووضعه جانبًا، وأخذ من مكانه، ولا يزال متشنجًا ومحتقنًا العواطف لمعرفة ماهية قصة الخلاف اليوم.

نهض، عدَّل ملابسه، أصاغ السمع جيدًا، صياح ممزوجًا مع أصوات الطيران الحربي والقصف، فلم يتمكن جيدًا من فهم القصة، كان يسمع شذرات مثل:

- إذا كنت تريد منه شيئًا، فقله لي، وأنا سأقوله له.
- منذ متى لا يستطيع الأب أن يتكلم مباشرة مع ابنه؟
- لم تتكلم مع ابنك إلا إذا أردت أن تفتعل مشكلة معه، لذا لا تمثل نفسك كأب مثالي.
- لست أنتِ من تقررين ذلك، سأتكلم معه وأفتعل مشكلة،

أنتِ لا علاقة لكِ بذلك.

- لا تقرب منه.

سمع أسير خطوات قادمة نحو غرفته، ارتجف وارتبك وانسحب إلى فراشه، ثم قفلت الخطوات عائدة، بعد ما اعترضته أمه قائلة له:

- لا تقترب منه، ابتعد عنه.

- ابتعدي عن طريقي.

- لن أبتعد، قل لي وأنا سأقول له.

- قلت لكِ ابتعدي.

رمقت زوجها بنظرات حادة، وابتعدت عن طريقه، ثم قالت له ببرود:

- ابتعدت، إذهب، إذهب وافعل معه مثلما فعلت مع أخوه، أو اقتله بالمرة كما قتلت أخته.

رنت هذه الجملة واضحة وصارخة في أذن أسير، مضى ثواني وبدأ يسمع صرخات واستجداءات أمه تحت تأثير الضرب المبرح الذي ينهال عليها، وأبوه يصرخ:

- أنا لم أقتلها، لم أقتلها، لم أقتلها، لم أفعل شيء، لم أفعل شيء، أنتم من قتلتموها.

اضطرب أسير اضطرابًا رهيبًا، ولم يعرف ماذا يفعل، خاف، ارتعد، ارتعشت أوصاله، تغبشت أفكاره، شعر بأنه يختنق، وحنجرته تنغلق، والعالم كله ينهار، مشى سريعًا باتجاه الباب، ووضع يده على المزلاج ليفتحه، تردد وقفل عائدًا إلى سريره، جلس، ثم قام مرة أخرى واتجه صوب الباب، ثم نبش بين قطع المرآة المشوهة في القمامة، ثم التقط المنشفة المصبوغة بدمائه من الأرض وعلقها، لم يعد يحتمل سخونة الموقف، شعر بأنه محتجز أمام خيارين: الإغماء، أو الخروج.

استجمع قواه وخطى باتجاه الباب، فجأة وثب من مكانه على إثر قطعة صغيرة من المرآة المكسورة لسعته أسفل قدمه، أثارت غضبه أكثر مما سبق، فتح الباب واتجه يخلص أمه.

كان والده واقفًا هناك مغطيًا بجسده الضخم زوجته التي تحتمي من ضرباته العشوائية، وهو يصرخ عاليًا: لم أقتلها، لم أفعل شيئًا، متزامنًا مع سقوط عدة قذائف قريبة في الأحياء، مرتديًا زيه العسكري الذي يكشف عن مسدسه المعلق على خصره، المشهد مؤثرًا وقاسيًا، سارع

أسير حائلًا بينهما، ثم اقترب من والده، وتردد في لمسه بداية الأمر، أحس أنه أمام جسد غريب، ليس جسد والده، ربما لأنه لم يعتاد على لمسه أو مقاربته بهذا الشكل، فانتابه إحساسًا غامضًا وهو محشور في هالته، وقف وراء جسده الضخم، ووضع يديه على كتفيه العريضين، وراح يشده بعيدًا عن أمه، لم يتمكن من زحزحته من مكانه، اقترب ووقف حائلًا بينهما مرة أخرى، لعل هذا يستفزه ويكيل الضربات عليه بدلًا عنها، استمر توجيه أنيابه الحيوانية نحوها، أحس أسير بضآلة وعجز أمام استجداءات أمه بدموعها ونحيبها وصراخها، فبعث فيه قدر من القوة والجرأة التي لم يعتقد أنه يمتلكها، وللحظة لم يعد يفكر بأن هذا الشخص الماثل هو حقًّا والده، فقد السيطرة الكاملة، ولم تعد هي ذاته الواعية، تتحكم في حركته، وتحول بوضوح إلى ما سماه علم النفس الحديث إنسان غرائزي، وعندما تذكر هذا المشهد فيما بعد كانت أحداثه ضبابية، وكأنه قد غاب عن الوعي في غضون ذلك الوقت، ولكن ما كان يتذكره جيدًا، هو ما أحس به، شعوره وعاطفته، لذة غامضة، سيطرة، وتحكم، فتتمة المشهد كان على الشكل التالي:

بعد عدة محاولات فاشلة، حانت اللحظة التي فصلت أسير عن الواقع، وانفلت جهازه العصبي انفلاتًا لا إراديًّا، لمح المسدس المعلق

على خصر الأب، سحبه بسرعة ولقمه، ووضع فوهته على رأس والده من الخلف، وهو يصرخ بنبرة حازمة جريئة، ولكن بتأتأة واضحة غير مفهومة، وربما لو كانت بظرف غير هذا الظرف المشحون، لكانت طريقة كلامه محط سخرية وضحك:

- اا ابتعد ععنها، اااابتعد عنها.

انفجرت سيالته العصبية المسؤولة عن الكلام، انفكت عقدة لسانه، صرخ عاليًا من ورائه مرة أخرى بأسلوب مسرحي مبالغ فيه:

- ابتعد عنها، ابتعد عنها، أقسم بالله أقتلك، أنا أقتلك، ابتعد عنها.

تجمد المشهد لعدة لحظات، ارتسمت صدمة رهيبة على ملامح أمه، حدقت مصدومة من وراء دموعها، وصدمة أخرى على قسمات والده وهو يرفع جسده بطيئًا وتدريجيًّا، أشبه بمجرم مسك بالجرم المشهود، يحدق نحو زوجته المضطربة التي تحصر النظر في ابنها فقط، لحظات من الصمت المربك، الهدوء المتوتر، بادرت الأم قائلة بلهجة هادئة:

- ابني، ابني، ماما.

كانت أعين أسير الثابتة تلمع بشرارة فظيعة، وشفتاه المنفرجتين

ترتجف، والمسدس بين يده يرتعش، بالكاد سيسقط، تحدثت إليه، أسير غائبًا، سمع صوت، تمتمات ما، لم يكن قادرًا على معالجته ولا إدراكه، وكأن الصوت نابعًا من رأسه للخارج، استمرت بالتحدث إليه، أمام صدمة الأب الواقف بهدوء دون أن ينبس بحرف:

- ابني، ماما أسير، طلع فيني حبيبي، الله يرضى عليك، ماما حبيبي.

فجأة بزقه العدم إلى الواقع ثانية، استيقظ من كابوس بعيد، بدأ يستعيد إدراكه تدريجيًّا، حوَّل بصره ببطء نحو مصدر الصوت، تعرف على هويته، إنها أمه، صوت أمه، استشعر المسدس، فزع، ثم انصبت كلمات أمه في رأسه التي كانت أشبه بمحترف ميداني يحاول إنقاذ شخص من الانتحار:

- ماما حبيبي، ارمي المسدس، ابني طلع فيني حبيبي، ارمي المسدس الله يرضى عليك، واطلع برا البيت، لا تخاف انتهى كل شيء، يلا يا ابني الله يرضى عليك، حط المسدس وروح برا البيت.

شعر بكلمات أمه تأكله من الداخل، ولوهلة لم يعد قادرًا على احتمال المسدس، ولم يعد بوسعه احتمال أي شيء، شعر بشيء داخله قد انطفأ

للأبد، وسيضطر إلى متابعة حياته في العتمة، في العتمة الدامسة وحدها.

كانت خطواته التي تتجه نحو النادي الإلحادي مختلفة عن خطواته السابقة، فقد تخللها نوعًا من الهدوء والثقة، أسدل الليل ظلامه على العالم، مشى بين الأحياء المظلمة وفي قرارة نفسه تتدفق عواطف غريبة وجديدة، مشاعر مضطربة لم يتمكن من معرفة كونها، ربما انتصار، ربما تحكم، ربما أعمق نقطة من اليأس، لا يدري إلى الآن ما يشعر به، ولكن ما كان واثقًا منه تمام الثقة رغم كل الاضطراب الذي يحسه هو أن هذه المشاعر لا تضايقه بقدر ما تثيره.

وصل إلى النادي، وعبر البابين الخارجي والداخلي، بعد ما صفق الباب على حشرة كادت أن تلج معه إلى النادي، توجه صوب مشتهى التي كانت جالسة على طاولته المعتادة هو ورافل، اقترب وألقى تحية بصوت واضح هذه المرة، ضغى على ألحان اغنية losing my religion التي قد بدأت للتو في الخلفية. وارتمى على الكرسي أمامها، أشعل سيجارة التقطها من علبة دخان موضوعة على الطاولة، ألقى رافل التحية عليه من بعيد، جلب كؤوس بيرة، حسب حسابه، وضعهما على الطاولة وهو يقول:

- لم أتوقع أنك ستجيئ اليوم.

- ولماذا لم تتوقع مني أن أجيئ اليوم؟

تبادلا نظرات خاطفة فيما بين رافل ومشتهى، دلالة على جراءته وهو يعيد جملته بالكامل، بعكس ما يفعله عادة أن يقتصر قدر الإمكان من الكلمات، ثم تابع كلامه:

- توقعتك أجبن من أن تخرج تحت كل هذا القصف؟

رمقه أسير بنظرة تحذيرية وجامدة لا حياة فيها، سارع صديقه يعقب بضحكة على تنمره:

- ماذا بك اليوم يا رجل؟ أمزح معك.

أومأ له صامتًا، وبإنزعاج رشف من كأس البيرة، ثم ترك الدخان ينفلت كسحابة كثيفة غطت وجهه بالكامل، ثم سمع صوت مشتهى من وراء غمامة الدخان تتقرب إليه:

- كيف كان يومك اليوم؟

تأمل سؤالها لحظات وهو يحدق في كأسه، انقشعت سحابة الدخان بينهما، مرددًا:

- لا شيء مهم، وأنتِ كيف كان يومك؟

- تمام، لا شيء أيضًا.

عاكسها رافل بنظرة وهو يقول:

- آه صحيح، لا شيء، لا شيء، بحسب العالم لورانس أن الكون أيضًا بمجمله انفجر من اللا شيء أيضًا.

أدبته مشتهى بضربة خفيفة، وقد احمر خديها قليلًا، قائلة:

- توقف.

غمز أسير، واستمر في ممازحتها:

- انفجار هائل.

- توقف.

- هائل جدًّا.

استحالت خداها كلون الرمانة، امتعضت قسماتها ثم قالت بنبرة خجولة تتخللها عصبية واضحة:

- لك بس خلاص.

- حتى أن...

تدخل أسير وقاطعه قائلًا:

- اتتركها وووشأنها.

رمقه بنظرة غريبة متعالية، واستمر في ممازحتها دون أن يكترث به.

رشف أسير كأسه دفعة واحدة حتى قاعها، سحب آخر سحبة من سيجارته، أطفأها ببرود وبطء، نهض حاملًا كأسه، تجاوز مقدار خطوة الطاولة، ثم توقف والتفت صوب صديقه، قائلًا:

- ذاهب لأملأ كأس أخرى، هل من أحد يريد المزيد؟

رشف صديقه آخر ما تبقى من الكأس بعفوية، والتفت نحوه ليعطيه إياها قائلًا:

- أنا أريد ك.....

رفع أسير قبضته الملفوفة بالشاش، وقبل ما أن يكمل صديقه الكلام، ضربها على وجهه، ثم عقب على ضربته بنبرة تأديبية حاسمة:

- ققالت لك تتتوقف يعني توقف.

مشى نحو الكونتوار حاملًا كأسه الفارغ، وصمت مطبق يعم أرجاء

النادي، الأعين مصدومة موجهة نحوه بلا حركة أو حياة، سوى صوت أغنية صادرة من خلفية المشهد، رفع كأسه ووضعها على الدفة مشيرًا الحديث إلى النادل دون أن يلتفت ويرى مما خلفه من عرض درامي:

- كأس أخرى إذا سمحت.

فجأة شعر بأحد ما يهاجمه من الخلف، التفت وتلقى ضربة أليمة على فمه شققت شفتيه، تلاها دفعة قوية رمته على حرف الكونتوار وأسقطته أرضًا، سُكبت بعض كؤوس البيرة، وقف بعض الشبان حائلين بينهما، نهض بجسده النحيل، نفض أغراضه، عدل ملابسه، التقط كأس بيرة مليئة من على الطاولة المجاورة، شربها بتلذذ على ثلاث جرعات متقطعة، وبين الجرعة والأخرى يجيل النظر ببرود على التجمع الذي خلفه وعلى ملامحهم المدهوشة، شعر وكأنه يُرى كما يرغب لأول مرة، أعاد الكأس مكانها، رمق صديقه بنظرة أخيرة جامدة، ثم اتجه صوب باب النادي وقطرات من الدماء تسيل على ذقنه، وبنظرة فضولية تعتلي وجه مشتهى لاحقته بحرص بهما إلى أن غاب عن عينيها الشهيتين الناعستين وراء الباب.

جلس أسير واتكأ برأسه على حائط غرفة روح، متأملًا العالم ينصب

بحرية عبر مجرى رأسه، خلف الجدار وراءه وقع خطوات، وحفيف ثوب، ورائحة حنين غامض، موسيقى مسار للثلاثي جبران تحملها نسمات الليل من شق نافذة على كلمات الشاعر محمود درويش: "مشى الخوف بي ومشيت به حافيًا ناسيًا ذكرياتي الصغيرة عما أريد من الغد، لا وقت للغد، لا وقت للغد".

أسفل طابقين نشيج طفل خائف، أعصاب مذعورة فوق الفراش، أعين منتفخة قلقة تتوسل للنوم، مواء قطة جائعة تنتظر وجبتها أمام بيت، ظلام دامس يغلف المدينة بالكامل، رشقات صاروخية من مدفعيات متوزعة عبر أرجاء المدينة، أصوات مروحيات متقطعة تخترق السماء اللا مرئية، أعمدة المدينة بالكامل تهتز تحت سكانها وكأنها مبنية على أمواج هائجة، لا شيء ساكنًا في هذا العالم، كل شيء يتحرك، لا وقت لديك لتجمع شتات نفسك، لا فرصة لتحدق داخل ذاتك لترى موضع قدميك، هنا يعيش أسير في بلد يصنف على محرك غوغل ضمن أخطر ثلاث دول في العالم، كل شيء يتجه في مسار واحد، ولوهلة عندما تقف وتحدق في مسارك، فتكتشف أنه ليس بمسارك الفعلي، إنما مسار العالم التي تحركه عجلة الضرورة، عجلة البقاء، عجلة النجاة، فتسير مع التيار خانعًا بوهم منفوخ في التحكم بعجلة القيادة، كل شيء

في هذه المدينة يجردك من سمات التعاطف الإنسانية، وينتشلك من إطار الصورة الإنسانية ويرميك وسط معركة حيوانية شرسة وقذرة للفوز والتفوق، ومن يخرج خاسرًا منها يُطمر بالتراب بلا شاهد، وينسى اسمه كرقم في خانة المئة بعد الفاصلة، كل شيء خارج السيطرة، وما يكاد المرء يتمسك بشيء إلا وتراه ينزلق من بين أصابعه، لا ذاته في قبضته، ولا العالم يسير وفق مخططاته، وكأن هذه البقعة الجغرافية معلقة بطرف خيط رفيع تصطلى من أسفلها نار، وقودها البؤس والضنك اللذان يستوردان من أصقاع الأرض.

"أمشي، أهرول، أركض، أصعد، أنزل، أنبح، أعوي، أنادي، أولول، أسرع، أبطئ، أهوي، أخف، أجف، أسير، أطير، أرى، لا أرى، أتعثر، أصفر، أخضر، أزرق، أنشق، أجهش، أعطش، أتعب، أصرخ، أنسى، أهذي، أهلوس، أجن، أعلو وأهبط، أدمى، ويدمى عليَّ".

نهض واتجه صوب باب غرفة روح، قرع الباب، سمع خطوات قادمة، فتحت وارتسمت فجأة ملامح القلق على قسماتها، عندما انعكس ضوء الغرفة الباهت على وجهه ورأت الدماء متيبسة على شفتيه، قالت:

- ما الذي حدث؟ هل أنتَ بخير؟ سأجلب مطهر ولزقة جرح.

سارعت في البحث عنهما دون أن تنتظر جوابه، فقال لها بعصبية عندما رآها تتخبط بين أغراضها المكومة في العتمة:

- لللا داعي لهما للا تتقلقي، رررروح رررروح، أأأنا ببخير أنا بخير، فقط للا تتتصرفي بهذا القلق الممبالغ مثل أأأمي.

جلبت محرمة وبللتها بعطرها ذاته الذي اشتمه في أول لقاء لهما على الدرج، فأنعشت الرائحة فيه ذكريات ضبابية عن طفولته في مشهد متكرر له عندما كان يخرج من دورة تعليم القرآن في المسجد؛ ليرى أمه تنتظره مبتسمة، فتأخذه بحضنها قبل أن يمشيا، ولكن لم تكن تلك الذكرى بهذا الوضوح، إنما لقطات وصور عن طفولة بعيدة المنال، ربما كان يشتم تلك الرائحة عندما كان رأسه ينغرس في حضن والدته، مدت المحرمة بيدها على شفتيه؛ لتنظف الدماء، فسحب المحرمة من يدها مشيرًا لها بأنه سيتولى الأمر بنفسه، ثم قال لها:

- ررائحة هذا العطر أأأشعرتني ببأنني ققد عشت هذا الموقف عما ققبل.

- وكيف هذا؟

- لالا أدري، للمعت في رأسي صصور ضضبابية.

حدقت في ساعتها، ثم قالت له:

- أنا آسفة، ولكن يجب عليَّ أن أذهب.

- إإلى أين، إإلى أأين سستتذهبين؟

- سوف أعود إلى الضيعة، الوضع يزداد سوءًا هنا، وعائلتي قلقة عليَّ، وأصروا على أن أعود اليوم.

ثم حملت حقيبتها الظهرية بعد ما وضعت فيها بعض الأغراض، وقفت أمام الراديو الصغير وأطفأته، وقالت له بنبرة قلقة يتخللها عطف:

- سمعت أصوات المشاجرة، هل والدك من فعل هذا؟

- لالا ليس والدي، لو ككان والدي ممن فعل هذا، لللكنت ددفنته ففي المقبرة ههنا.

وهو يشير بإصبعه نحو المقبرة بجانب العمارة.

- من إذن؟

- ششخص ما، ففعلت به أأأكثر ممما فعل بي.

وقفا أمام الغرفة على السطح، والقاذفات النارية تدوي من فوقهما،

نست شيء ما، دلفت وعادت مسرعة، ثم قالت له:

- هل ستكون بخير؟

أومأ لها بالإيجاب، ثم عقبت:

- أكيد؟

- لالا تقلقي.

- إن أردت خذ مفتاح غرفتي ونم فيها حالما يهدأ الحال وأعود.

- أنا بخير، ققلت لك، أأنا بخير أنا ببخير(بعصبية وامتعاض(.

قفلت باب غرفتها، ابتسمت له، التفتت وذهبت، فما كادت تتجاوز الباب وتغيب عن ناظريه، سمعته ينادي بها قائلًا وبتأتأة حادة وظاهرة:

- أأأنا لا أشعر ببشيء، لا أأأعرف إإن كنت ببخير، أم أأأنني لست ببخير، فقققط لا أأشعر بشيء، ممخدر كليًّا، وكل مما أفعله يندددفع من قوة لا أأأعرف مصدرها، ولكن ما أأعرفه أنها ليست ممن وعيي أنا، أأأشعر بوجود غغغيمة باردة تتعيش داخل ررأسي، تتتشوش فكري وتخدر ممشاعري، لللللا أعرف شيء، فقط لا أأأعرف، هههههل أنا ببخير؟ لا أعرف اللللحقيقة إن ككككنت بخير أم لا، لا أعرف أأأي

شيء.

كانت تحاول تركيب عباراته المضطربة، واقفة عند الباب، ثم ما لبثت أن اقتربت منه وأصغت جيدًا إلى تخبطاته، وعروق رأسه التي برزت بسطوع، وكأن الكلمات ستنفجر عبرهما، تأملت جدًّا، تأملته لحظات، سارعت نحوه لتحضنه، فأحس بذلك، فصدها بأدب وضحكة، وبطريقة لا تشعرها بالإحراج، فعقب قائلًا بسخرية سوداوية:

- أأأنا بخير لا تتتقلقي، فقط أأأردت أن أأأخبرك بهذا، وأيضًا شششيء آخر، أريد أأأن أخبرك به، بأن أأأبي كان يضربنا ككككثيرًا، وكان يضرب أأأخي قبل أن يسافر، وأختي قققتلت قبل أن تتتتكبر ويقوم ببضربها، ووولكنه يضرب أأمي الآن ببدلًا مننا، عندما يبيغضب مني يبيضرب أمي، ووولكن لن أأأدعه يضربها ببعد الآن.

حزنت جدًّا، لمعت الدموع بين جفنيها تحت أشعة الغروب، أومأت له بأسف، مُظهرة قدر كبير من التعاطف، ودَّعته وحذرته بأن ينتبه على نفسه، ثم غادرت مُكرهة، وعلى ملامح بشرتها السمراء مسحة تعاطف أمومي، بقي مستلقيًا على السطح يدخن، عاد إلى منزله أثناء الفجر، اتجه صوب غرفته مباشرة، لا أثر ولا حركة في المنزل، سكون تام، ارتمى في

فراشه، ولأول مرة لم يشعر بأنه في حاجة إلى الاستمناء قبل النوم.

صوت صفير الهواء يتدفق بصورة غير منتظمة، اضطرابًا تنفسيًّا في عملية شهيقه وزفيره، صدره يتسع ويضيق فوق الفراش، العرق يتفصد غزارة عبر مسامات جسده، رسمت بقعة مبللة على الملاءة، في جحر عينيه السوداويين ترى خللًا حركيًّا يحدث خلف ستار جفنيه، وبصورة غير طبيعية ينسحب هواء الغرفة تدريجيًّا عبر فمه، خلاصة شهقة طويلة ضاقت بها عظام صدره، وانفرجت عيناه حتى لامست حاجبيه، برز من خلال حدقتيهما شعاعًا غامضًا من الذعر والهلع، أطلق زفرة طويلة ساخنة هيجت العوالم الكمية في محيط غرفته القاتمة، القاتمة سوى من أشعة شفقي باهتة منفلتة من القمر، عبر ستائر منسدلة تعكس ظلالها الأفقية على جسده بصورة متقطعة.

نورًا باهتًا على عينيه المذعورتين، عتمة دامسة على امتداد أنفه، يليه ضوء آخر على شفتيه المضطربتين، وهكذا حتى آخر حدود جسده، ثم أخذ إدراكه تدريجيًّا يستيقظ من غفلته، تفحص معالم المكان من حوله، أقلقه بداية الصمت المزعج، صمت مستفز معزولًا بالكامل عن أي مدخلات حسية، سوى صوت أنفاسه اللاهثة، وقف على قدميه،

أحس بوجع في أعلى ساقه اليسرى، خطى بتعرج باتجاه الستائر وألقى نظرة فاحصة إلى الخارج، لم يكن هناك أي إشارة يستنبط من خلالها موقعه من خريطة العالم، سوى شجرة واحدة قاتمة مترامية عبر الأفق تتساقط أوراقها السوداء بمتتالية مزعجة، مشى باتجاه الباب ومد يده صوب المزلاج ليفتحه، لاحظ شيئًا غريبًا، عاد صوب النافذة ورفع يده اليمنى كي يتمكن من رؤيتها بواسطة انعكاس ضوء القمر، حدق بها بإمعان، وأخذ يدقق في تفاصيلها، أحس بشيء غريب يحدث فيها، دم أحمر فاقع يسيل من سبابته تحاصر كفه بالكامل، مال يده للأسفل لعل الدماء تسقط، ولكن لم تُغير من مسارها، ارتعب وأخذ يهز يده هزًّا شديدًا، ولكن الدماء أبت السقوط، عطلت قوانين الفيزياء، لم يتمكن من تحديد ماهية هذا الشيء، ولكن واثق من أن هناك إشارة ما، رسالة غير مفهومة وغامضة، حوَّل بصره على كامل جسده تحت الإضاءة الضعيفة، مشى خطوتين وجلس، ثم قام ومشى مرة أخرى بتعرج، عاد وحدَّق في يده، كرر ذلك عدة مرات محاولًا العثور على تفسير ما، سبب معقول يفسر ماهية هذا الموقف الغريب، ولكن عبث، كان ذهنه ضبابيًّا ومشوشًا، لم يتوصل إلى أي استنتاج منطقي، سوى من إحساس خافت مدفوع من مكان مظلم وبعيد، ألا وهو أنه هو ذاته، ولكنه ليس

هو في نفس الوقت، شعر بنوع من الازدواجية في الشخصية، بالثنائية الديكارتي، العقل والجسد.

لمح جريدة وسط الظلام موضوعة على منضدة بجانب سريره المبلل، خطى باتجاهها وحملها بيده الدامية، فجأة تقلصت عضلات وجهه، وبرزت معالم جبينه حدة، ثم وبنظرة مقطبة يرى خبر عاجل مخطوط أعلى الجريدة تحت عنوان:

(مات منتحرًا(

أسفلها صورة جثة متدلية في الهواء، ولكن لم تكن أي جثة، إنما جثته هو.

استيقظ أسير من الحلم في حالة من الذعر والاضطراب، والعرق يتصبب بغزارة من جسده، وقبل ما أن يستوعب الواقع دفعته مثانته للتبول، نهض سريعًا صوب الحمام، ثم عاد إلى فراشه وعلى وجهه مسحة من الارتياح والنعاس، حدق صوب النافذة فأدرك أن ضوء الصباح قد انجلى، تأمل السقف لحظات معدودة، استعاد فيها أحداث الحلم، سطعت في رأسه بعض الصور والتخيلات، وما لبث أن تجاهلها سريعًا، بغير الحاجة إلى استخلاص أي نوع من الإشارات الكونية، أو

الرسائل النفسية التي يبثها الحلم، فهو مجرد حلم، كابوس، إسقاطات نفسية عشوائية، أسير لا يملك أدنى رغبة بالاستعانة بمفسر ابن سيرين ليعلل منامه، فالتقط يتصفح هاتفه، أول ما ظهر له إشعارًا من أمه، أسدل الستارة، لمح ما كان على غير العادة، ضغط وقرأ الرسالة، وهي:

صباح الخير ابني، أنا ذهبت لعند خالتك الصبح بكير، سوف أقيم عندها فترة، انتبه على حالك.

رد عليها:

صباح الخيرات، لا تقلقي عليَّ أنا بخير، انتبهي على حالك إنتِ.

اجتاحت جسده عواطف مضطربة، فبالرغم من أنه أحس بعبء ثقيل قد انزاح عن كاهله، إلا أنه رافق ذلك ضيق وكدر، ولكن بعد ذلك ارتاح قليلًا لمعرفة أنها ستتواجد في مكان ليس فيه والده، وهذه نقطة كافية لتجعله مطمئنًا، نهض والتقط منشفته وملابسه الداخلية وذهب ليستحم.

خرج من الحمام، واتجه صوب غرفة المعيشة، فارتأى والده جالسًا مطأطئ الرأس على كرسي المائدة، نبضت في رأسه ذكرى جملة أمه في الأمس عندما قالت له:

انظر إلى أباك عندما لا يدرك أحد أنه ينظر إليه.

رمقه بنظرة عابرة قبل أن يستشعر وجوده، فرأى فيه لأول مرة عجوزًا منكسرًا، بعد ما كان يراه عملاقًا شاهقًا مخيفًا، خيطت على وجهه تجاعيد الزمن، لم يلاحظ وجودها على ملامحه سابقًا، وكأنه في يوم كبر مئة سنة، انتفض من شروده بعد ما تنبه لحركة ابنه، عدل جلسته بتواضع، ثم بادر بالقول بنبرة خانعة يتخللها ود واضطراب:

- تفطر معي، كنت في انتظارك.

سقطت جملته على أذني أسير وكأنه قد صعق بكابل كهربائي، استجاب له بنظرة استفهامية تلاقت فيها أعينهما لحظة من الزمن، ولكنها لحظة زمنية سرى فيها الضوء كسلحفاة كسولة، لحظة واحدة كفيلة بأن تبعث الحيرة في الجو، امتثل لأمره، ومشى بتؤدة نحوه، وجلس أمامه، وبدأ بسكب الشاي، وتجاهل زوبعة الأفكار التي شرعت تضطرم في رأسه عن مبادرته السخية، كسر الأب حاجز الصمت مرة أخرى، واضطرابًا نابعًا في لهجته بعكس ما كان عليه أسير الذي أجهد نفسه لكيلا تبرز على هيئته الصدمة، فاكتفى بأجوبة مختصرة، وبنبرة لا مبالية:

- ماذا بهما شفتاك ويدك؟

- لالا شيء.
- هل اعترض طريقك أحد؟
- لا.
- لم تسألني عن أمك؟
- ببعثت لي ببرسالة.
- ماذا قالت لك؟
- سسستزور أختها ببعض من الوقت.
- ألم يزعجك هذا؟
- لا.
- لا؟
- لا.
- وافترض أنها لن تعود ثانية إلى هنا؟
- لا، سسستعود.
- لماذا أنتَ متأكد من هذا؟

- لأأأأنها ستعود.
- كيف أنك واثق من هذا؟
- لأنها أأأمي.
- لم تسألني كيف عبرت المعبر إلى هناك؟
- ككككيف عبرت المعبر؟
- أوكلتها لأحد ما من معارفي، أوصلها إلى هناك.

أومأ له دون أن ينظر إليه، واستمر في فطوره وهو يتظاهر بين الفينة والأخرى بمشاهدة الأخبار التي تبث اشتباكات أمس على شاشة التلفاز.

ثم عاد والده في تنشيط الحديث، وشرع يتكلم بنبرة اهتمام:

- هل لا زلت ترغب في السفر؟
- لا
- لماذا؟
- سسأبقى هنا.

- لماذا؟

- سسأبقى هنا مع أمي.

- خائف أن أؤذيها؟

- سسأبقى ممعها فقط.

- اطمئن، لن أضربها بعد الآن.

أومأ بكسل وهو يهز رأسه، ثم تابع والده بنبرة عصبية:

- قلت لك لن أؤذيها بعد الآن.

رمقه أسير بنظرة متوجسة عندما التمس نبرة صوته الحازمة.

- أعرف صديق لي، سأتكلم معه اليوم كي يساعدك في إجراءات السفر.

أخيرًا بعد ما نهض أسير، صاح والده به، باسمه، خرجت غريبة بصوته، ووطأتها أغرب على سمع أسير، هل هذه أول مرة يسمع اسمه منطوق بلسان والده، قال:

- أسير.

التفت إليه صامتًا مستفهمًا، ثم عاد وعقب:

- لا شيء.

عندما دلف إلى غرفته بعد الإفطار المفاجئ، تدفقت مشاعر غريبة سرت في كامل جسده، أنعشت إحساسًا غامضًا في أعضائه إلى درجة أحس بارتعاش خفيف جرته إلى ذرع الغرفة جيئة وذهابًا بلا غاية أو هدف، فكان الموقف عما قليل قد استولى كليا على ذهنه، وقد منعه ذلك من التفكير به بوضوح، غارة عاطفية داهمت دماغه وهزت كيانه من شرشها، التقط هاتفه وراح يبعث برسالة إلى والدته ليخبرها عما حدث.

تنحى ضوء الصباح جانبًا؛ ليفسح المجال لخطوط المساء بالتراخي على العالم، نزل أسير من البيت طلبًا من والده الذي حدد له موعد لقاء مع صديقه للتحدث بإجراءات السفر، ركب السرفيس وعلى هيئته نزعة من الحماس المضمرة، فصادف بداخل السرفيس رفيق أخاه الذي وقعت المشاجرة بين الأخ البكر والأب بسببه، حينما احتجز بالمظاهرة، فسأله عن أحواله العامة، ثم لمح له بحديثه عن ذلك اليوم، فأجابه بأنهم أخرجوه في اليوم التالي مباشرة، وقد فسر سبب ذلك، بأن أمه راضية عنه، ففي الحقيقة لا يعرف إلى الآن لماذا أفرجوا عنه هكذا ببساطة،

بالرغم من أن هناك أشخاص احتجزت معه بنفس المظاهرة ولم يفرج عنهم إلى الآن؟!

توقف السرفيس أمام حاجز تفتيش، وطلب من الركاب الهويات، بينما كان أسير في الكرسي الأخير يحدق عبر الشباك مذهولًا، نادى عسكري باسمه، رد عليه بالإيجاب، ثم قال: انزل لعندي.

سأله حائرًا: لماذا؟ هل فعلت شيء؟، فرد عليه: لا، لم تفعل شيء، لكن اسمك مطلوب للخدمة الاحتياطية.

كان الوالد واقفًا أمام النافذة يحدق صوب الشجرة الكثيفة المترامية خلف المقبرة والمتاخمة للتمثال الحجري المنحوت الواقع أمام المبنى الأمني، عندما تلقى هاتفًا من صديق ابنه الذي جلب رقم الوالد من الأخ البكر، وأخبره بأن أسير كان معه في السرفيس، وقد أخذوه الحاجز طلبًا للخدمة الاحتياطية، اصطبغت على وجهه صدمة قاتلة، غضب غضبًا شديدًا، وقد جن جنونه، رمى الهاتف بقوة على الحائط، وفرط كمسبحة، سجد على الأرض، وراح يصرخ كطفل رضيع.

الفصل الأخير

بعد مضي حوالي شهر منذ أن سُحِبَ أسير لتأدية الخدمة الاحتياطية، صف سرفيس على جانب الطريق، ونزل منه أسير بزيه العسكري الفضفاض الذي يكشف عن نحوله الزائد، وعلى ظهره حقيبة مموهة، وقد لاحت على هيئته الشاحبة صلابة وجمودًا وكآبة، بالإضافة الى جبينًا مقطبًا عابسًا، صفق باب السرفيس بقوة وخطى نحو الرصيف، مخلفًا وراءه صياح السائق منزعجًا، ولا سيما أن هذه أول إجازة له جبر على أخذها، منذ أن خضع لتدريب سريع، ثم نقل إلى معسكر يعتبر نقطة اشتباك تقع في ضواحي مدينة حلب، وقد حاول والده بالاستعانة بمنصبه الرفيع أن ينقله إلى نقطة أكثر هدوءًا وأمانًا، لكن أسير رفض مساعدته، وقطع التواصل معه نهائيًّا منذ ذلك اليوم، في الأيام الأولى من التدريب قدم انطباعًا مستنكرًا عما وصل إليه، وأنكر حقيقة مآله هنا في مقاطعة حربية، وعندما يقف في ساحة التدريب وسط زيات عسكرية مموهة، يتراءى له وجه والده يبرز في عنق كل بدلة عسكرية،

مما يزيده إنكارًا وجحودًا، لدرجة أنه خطط في لياليه الأولى الانشقاق عن الجيش والهروب خارج البلد، وقد عزم أمره على تنفيذ الخطة لولا اشتباك عنيف وقع في ذلك اليوم، قضت على كامل خطته.

بعد مضي أيام من ذلك الاشتباك بدأ الإحباط والاستسلام يتسللان إلى عقله، فانقاد وراء أيامه منقطع العلاقات عن بقية العساكر، ومذعنًا لواقعه المرير، وقد أعطى انطباعًا غريبًا عن تحركاته ومزاجه لدى كافة المعسكر، وقد ذيعت الإشاعات بأنه مختلًا ومتوحدًا، وفي إحدى الأيام دُعي إلى جلسة خاصة مع ضابط المعسكر، جلسة ودية سأله عن أحواله، وقدم له كأس متة وسيجارة، وأخبره بأن لا يقلق، وأي شيء يحتاجه يطلبه منه، وقد أخبره بأن الأمر سيكون أفضل بعد أن قدم طلب للسلطات العليا بإرسال مدرب نفسي عسكري واسع النفوذ والذكاء بسبب حساسية نقطتهم، وقد وافقوا على طلبه، وغدًا سيأتي وسيعقد اجتماع مع الجميع، أخيرًا قبل أن يرحل أشار الضابط له بجملة: والدك أوصاني بك، وسوف أعتني بك، لا تقلق، فأثارت هذه الجملة مزيدًا من الحقد على والده، واحتقاره لنفسه، فشعر بنوع من المهانة والصغر، وأنه ليس سوى حشرة أو طائر بلا جناحين، وقد عزز ذلك الشعور في نفسه نظرات العساكر له، في اختلاف المعاملة بينه وبينهم مع الضباط،

وكل ذلك بسبب والده، فراح يقرأ شفاههم، ويترجم نظراتهم، على أنه طفل أبيه المدلل، مما أثار حنقه ونفوره، مما زاد من تحصين عزلته، ولكن تغير الحال كليًّا، وقلبت النظرة رأسًا على عقب عندما وقع الاشتباك الثاني في ليلة باردة وممطرة، ولولا شجاعته واندفاعه المجنون لكانت القطعة الآن تحت أيدي الجيش المسلح، وقد أُمطر بالإطراء والمدح والدعم من كافة أعضاء المعسكر، كبارهم وصغارهم، فانتابه شعور غامض ولذيذ مما حققه، فانتفضت كامل أعضاءه، شبيه بتلك الانتفاضة المثيرة التي أحس بها عندما هدد أبيه بالمسدس، على الرغم من الإنجاز الذي حققه، إلا أنه في الواقع لم يدرك حقيقة ما حدث معه في ذلك اليوم، ففي ذات الليلة استلقى على فراشه، وعاد بشريط ذاكرته أثناء وقع الاشتباك، فشعر بحلقة ناقصة تربط ما بين بداية الاشتباك ونهايته، فكانت الأحداث صافية في البداية، بعد ذلك تعرض ضبابية ومتقطعة في رأسه كصور فلاش باك سريعة، ثم أخيرًا تعود ساطعة في النهاية، فلم يدرك حقيقة الإنجاز الفعلي الذي رفع مقامه في نظر جيش المقاطعة، فما حدث كان على الشكل التالي:

فجأة سمعت صفارات الإنذار تدوي في الأرجاء، حمل كل واحد سلاحه وتوجه إلى مركزه، انهالت القاذفات على المعسكر من كل جانب،

وراحت مدفعيات المعسكر بإطلاق صواريخها، عم المكان بالصراخ والصياح، تشوَّشت الرؤيا بسبب سحابة الغبار الكثيفة، انتشرت الفوضى في كل السكن، هنا جرحى تنادي طلبًا للمساعدة، وهناك صراخ طلبًا للذخيرة، وكل شيء تحول فجأة من هدوء عدمي إلى طامة كبرى، وقف أسير مرتجفًا في مخبأه بين مجموعة من الجنود، الذين يتناوبون في إطلاق الرصاص باتجاه العدو، ما عدا أسير الذي كان يتظاهر بداية الأمر بالانشغال في شيء ما، ثم راح يتناوب معهم في إطلاق الرصاص بشكل عشوائي، وبعد كل دورة ومشط من الرصاص، تتدفق في جسده موجة من الارتعاش والإثارة، يسند ظهره خلف الحائط، يملأ ذخيرته بتشنجات صدرية، وشهيق عميق، وزفير مرعب، وتتسع حدقتا عينه بعد كل دورة كثقب أسود مخيف، وبعد كل دورة تزداد إثارته الطفولية، مما سبب بعض البلبلة والارتباك في مجموعته، فراح يكثر من دورات إطلاقه للرصاص مقارنة مع الآخرين، واستحال الاشتباك بالنسبة له كلعبة حربية، وقد تراءى الاستغراب فيما بين المجموعة بشكل واضح، ولوهلة نسي أسير مفهوم الموت الحقيقي، فقد كان يعيش داخل لعبة، داخل محاكاة، داخل لا وعي مهتاج، ملأ ذخيرته بالكامل، وغير مشطه، واندفع كمجنون باتجاه الموت وهو يطلق الرصاص نحوهم بكل اتجاه،

وكأنه أصيب باضطراب الآموك، لم يكن أسير هناك حقيقة، كان غائب عن الوعي، وأمه بعيدة عن أن تعيده للواقع مرة أخرى، لم يكن يفصله عن الموت سوى شعرة، فاندفاعه المجنون هذا لم يكن هدفًا نبيلًا وطنيًّا، أو هدفًا للوجود، إنما كان ينشد العدم.

أخيرًا انتهى الاشتباك بعد ما افتعل بتصرفه هذا موجة من الإثارة والاندفاع والحماس في كامل المجموعة، انطلقت مجموعة أخرى على إثرها، إلى أن انتهت أخيرًا بتحقيق بعض الغنائم، وبعض الرهائن، وموت عدد كبير منهم.

ومنذ حينها لقب بالبطل، ولم يدم طويلًا هذا اللقب حتى تحول إلى لقب المجنون، وأحيل مرة أخرى إلى المدرب النفسي العسكري، ولولا نفوذ والده لكان الآن يخضع لمحكمة عسكرية، وذلك بعد المداهمة الأخيرة التي ترأس مجموعتها في السيطرة على نقطة حساسة كانت تعج بمدنيين.

في الاجتماع الجماعي الأول الذي انعقد في الساحة مع المدرب النفسي العسكري، انتصب على منصة وفي يده مكبر صوت، وراح يخطب على الملأ بلكنته العميقة ولغته الفصيحة، فانسلت أقواله وعباراته بسلاسة

داخل العقول، لدرجة نسي الجميع وقوفه في ساحة معسكر، واعتقدوا أنهم في مدرج يحضروا محاضرة عن علم النفس، فقد جذب أدمغتهم برخامة صوته وبألفاظه الرنانة، فخرج الجميع من الاجتماع وفي نفس كل واحد منهم تعتمل روح الولاء وشعلة الواجب الوطني، وقد سقطت ذكرى رافل في رأس أسير عندما كان يسمع خطاب المدرب النفسي، فلاحظ عامل مشترك بينهما في براعتهم اللغوية.

وفي الاجتماع الفردي الأول الذي انعقد بين المدرب النفسي العسكري وأسير، وذلك طلبًا من الضابط بعد الإنجاز الذي حققه في المعركة، خوفًا من الردود النفسية السلبية التي قد تلحق به، بالطبع لم يكن وراء هذا الاهتمام سوى مصلحة وطنية، وليست بادرة إنسانية، فليست المهمة الرئيسية للمدرب النفسي العسكري علاج الحالة، إنما هدفه التحفيز النفسي، مساعدتهم في بلوغ أقصى ما يمكن بلوغه، وطمس أي رد فعل نفسي قد يهدد انتماءه أو إقدامه، جلسا مقابل بعضهما، فراح المدرب يدرس نفسية أسير، ويرى إن كان هناك وجود لأي نقاط ضعف أو خطر نفسي قد يهدد مصلحة الوطن، فراح بود وبنفاذ بصيرة يحدق في برودة أسير وصمته، فاستهل الحديث بإشادة مبالغ بها عما فعله في ذلك اليوم، وتبعات ذلك مما حققه من سمعة

رفيعة في معسكرات وفروع أخرى، وقد قال له أنه سمع بما فعله قبل أن يجيء إلى هنا ويلقاه، وقد زاد فضوله في التعرف إليه أول ما سمع بالخبر، وبقي يحشو في رأسه بلغة مزيتة ترطب خلايا رأسه، وأشار إلى إعجابه الكبير بشخصيته الفريدة، وانطوائيته وعزز ثقته بنفسه، فعزا كل ذلك إلى الواجب الوطني الذي قدمه في ذلك اليوم، مما أشعل فيه حماسة ساخنة طمرت خلف جسد بارد، خرج من الاجتماع وفي نفسه تدفق عواطف فخرًا وثقة على تصرف قام به، وظل يجهل تفاصيله إلى أن أتى ذلك اليوم، اليوم الذي غرس فيه رأسه بذلك الحضن، الحضن الذي جعله يتذكر كل شيء، كل الحلقات المفقودة بأدق جزئياتها الشنيعة، الحضن الذي سوف يلملم رماده ويطهر عاره.

طوال فترة إقامته في المعسكر وبالأخص بين الأيام الذي لقب به بالبطل، واليوم الذي لقب بالمجنون، كان على تواصل دائم مع صديقته مشتهى، أو بالأحرى رفيقة صديقه، ولكن اشتدت علاقتهما، وبلغت مراحل متطورة بعد اليوم الذي دافع عنها في النادي الإلحادي، فقد بعثت إليه رسالة تطمئن عنه بعد ما طال غيابه عن النادي، فأخذت الأمور تجري مجراها من رسالة إلى حديث مطول إلى صور إغرائية إلى مكالمات جنسية، إلى وعد بلقاء مكلل بخيالات جنسية فريدة ومبهمة،

وعلى مدى إقامته في المعسكر، كانت أكثر ما تلهب خيالاته، عندما تلمح إلى شهواتها الغريبة المتعلقة بالمازوشية والدماء، وقد أخبرته مرارًا بإحساسها الشهواني الغريب نحوه في ذلك اليوم تحديدًا، عندما رأت الدماء تنزف من شفتيه، فقد تمنت يومها بأن تلعق شفتيه وتقضمها، فلبثا يوميًّا يورما خيالاتهما الجنسية لبعضهما، وينتهيا في آخر المساء باستمناءات ذاتية، وقد اتفقا على لقاء في أول إجازة له، حتى يتسنى لهم أخيرًا إسقاط خيالاتهم الملتهبة على أرض الواقع.

فكانت مشتهى هي الصلة الوحيدة التي بقيت له للاتصال بالعالم الخارجي، بالإضافة إلى علاقته بأمه التي بقيت على تواصل متقطع بين الحين والآخر، تطمئن عليه، وتسأل عن أحواله عبر الرسائل، حاول أكثر من مرة أن يتصل بها، ولكن لم تكن ترد عليه، إلا برسائل كتابية، وكانت تتحجج بكل مرة بحجة وتعتذر، فلم يسمع صوتها، ولا رأى وجهها منذ ذلك اليوم الذي رحلت فيه، كان يبرر موقفها ويعذرها، ويقول لنفسه: أنها لن تتمكن من رؤيته بزي عسكري مثل والده، ربما كانت تشعر بالذنب لأنها تركته، ربما لو سمعت صوته أو رأته لأجهشت بالبكاء وماتت من الذنب، لهذه الأسباب كانا يتواصلان فقط عبر الرسائل، وكثيرًا ما كانت تذكره بوالده، وبواجبه تجاهه، وبأنه

قلق عليه، ومستعد بأن يكفر عن خطاياه، وأنه يحبه، ويجب أن يعطيه فرصة كي يريه هذا، فكان يتصل به بعد كل حديث من هذا النوع، ربما هو الأب من كان يدفع الأم كي تشعر الابن بالذنب، ومرة بعث له أخوه أيضًا برسائل تلمح إلى إعطاء فرصة لوالده، رغم ندرة التواصل بينهما، وفي كل مرة يرن فيها هاتفه، يتأمل اسم أبيه على شاشة الهاتف حتى ينقطع الاتصال، وهكذا تشتت عائلته، أخيه خارج البلد، وأخته قتلت، وأمه هجرت البيت، وأبيه وحده بالمنزل، وأسير هنا متأرجحًا بين العدم والوجود.

ففي صباح يوم موعد المداهمة استدعى الضابط أسير إلى مكتبه، جلس على كرسيه السابق نفسه، ومن أمامه جلس المدرب النفسي، شم على الفور توتر في الجو، كانا يتبادلان النظرات المرتبكة خلسة فيما بينهما، فبادر بالقول:

-ما سبب استدعائي، فأخبره الضابط بأن والده قد قتل. ظل جالسًا بلا حراك، توقف الزمن، وجمدت كلمات الحياة في رأسه، لم يشعر بأي شيء وقتها، ولم يبدي أي ردة فعل، في الحقيقة تخدر كليًّا، فتابع كلامه، بأنه قتل برصاصة في رأسه إثر هجوم إرهابي على موقع

عسكري في منطقة بعيدة عن المدينة كان متواجدًا فيها، ولن نتمكن من إحضار جثته في الوقت الحالي بسبب خطورة الوصول إلى هناك، وقد وصلهم الخبر صباح اليوم، وقد كان المدرب النفسي يراقب تصرفات أسير وتحركاته بدقة، وقبل أن ينتهي الاجتماع قال له الضابط: أمنحك الإذن بعدم المشاركة اليوم في المداهمة إن أردت، فرفض وأكد له بأنه مستعد وسيذهب، ثم قال له: بأنهم سيبذلون جهد في إرسال أغراضه عما قريب في صندوق إلى البيت متى استطاعوا، وهذا مسدس والدك استطعنا أن نحصله، ربما ذكرى منه، احتفظ به.

أخذه، ثم سارع المدرب النفسي قائلًا لي بنوع من التعاطف الخبيث:

سمعت مؤخرًا ما حدث لأختك، والآن والدك، يا لهم من أخوات ش)...نعته بسب بذيء)

رمقه أسير بنظرة حاقدة، ثم خرج.

عاد مكانه والتقط هاتفه، وراح يكتب لأمه رسالة يخبرها عن موت أبيه، حاول صياغة الرسالة بطريقة تخفف من وطأة الخبر، فأدرك أن الموت موت مهما زخرف وجمل، كتب:

أبي مات.

لم يتلقَّ أي رد، ولم يتلقَّ أي إشعار أو تقرير باستلام الرسالة، فآخر رسائل دارت بينهما كانت منذ ثلاثة أيام برسالة، تقول فيها بأنها تحبني ومشتاقة لي، وأن أنتبه على نفسي، وذكرت بأن والدي يقول نفس الأمر.

أتى موعد المداهمة، صعد إلى عربته مع المجموعة، وتوجه صوب الموقع الحساس، تسلل بين الأحياء واحتمى بمداخل الأبنية، وصل إلى المكان المشبوه، صعد الدرج بخفة ومجموعته معه، منتظرًا العد للثلاثة، واحد اثنان ثلاثة، اقتحام، كسر الباب وانطلق في الدخول كل واحد باتجاه، حاميًا ظهر الآخر، فتشوا المنزل، فارغًا، صعدوا للطابق الثاني، ثم الثالث، لا شيء، في كل اقتحام كان يحس بطاقة عظيمة تجتاح جسده، كان تركيزه حادًا وحساسًا، وإصبعه مثبتة على الزناد عند أول اشتباه، خرجوا من البناء الأول ودخلوا على البناء الآخر، فكلما طال الوقت زاد توتره وارتعاشه، كان العرق يتفصد بغزارة على وجهه، وحدقتاه متسعتان كثقب أسود سيبتلع كل شيء، ومضات صاعقة من الصور المتقطعة تبرق في رأسه وما يكاد يميزها تخبو، لقطات ضوئية تفصله لحظات عن الواقع وتشوش ذهنه، صوت مدربه النفسي يرن صداه في أذنه:

قتلوا أختك، والآن والدك، قتلوا أختك والآن والدك.

وصلوا إلى المنزل، عند الإشارة الثالثة، واحد، اثنان، ثلاثة.... اقتحام، ثم إعتام كلي في رأسه.

مشى أسير بتعرج بسبب إصابة في أعلى قدمه اليسرى، بعد ما نزل من السرفيس وخلَّف وراءه انزعاج السائق، باتجاه بيت مشتهى، التي تتوقع انتظاره في أي لحظة، بلغ العمارة وصعد الدرج بصعوبة، وآثار المعارك تلوح على هيئته، وصل إلى الباب، فتحه ودلف، كانت بانتظاره في غرفتها، تفحص المكان ثم توجه نحو غرفتها بناء على اتجاه صوت الموسيقى الصادر منها، وعندما دلف من الباب ورآها، أحس وكأن أحدهم قد فتح رأسه وصعق إنسانه البدائي، انتصبت شعيرات جسده بالكامل، تدفقت تيارات من الدماء في عروقه، ولوهلة أحس بأنه داخل إسقاط واقعي لتلك التجارب الإباحية التي كانت تؤجج خيالاته الجنسية طوال لياليه، كان المشهد على الشكل التالي بخلفية موسيقية cigarettes after sex:

كانت ممددة على الفراش بانحناءة مدروسة تغطي بواسطتها سحر مفاتنها العظيمة، شدة بياض جسدها يخيل للمرء بأنه غارقًا في حليب

صافي، شعرها الأسود الفاحم الحريري المسدول على بياض جلدها الناصع أشبه بتعبير رمزي عن خصومة الأضداد بين الأسود والأبيض، واتحادهما أخيرًا بكمالية أنيقة عبر مجسد أنثوي حي تنبض ذراته بجوع شهواني نهم، وعلى معصمي يدها الممددتان كجناحين حلقة من الأصفاد علقت بطرف السرير، أما عينيها فترى فيهما شعوذة بمنتهى المكر واللذة أشبه بنافذة تطل على عالم خيالاتها الجنسية، بينما شفتاها المكتنزتان تتجلى كإجابة ثاقبة لمعضلة بشرية عن البداية والنهاية، فكأنهما محاكاة علمية تقولان ببساطة: البدء من هنا، والنهاية من هنا.

رمى حقيبته، خلع ملابسه، وقبل أن يمتطيها بجشع ونهم، قالت له بأن يقفل يدها الأخرى بالصفد بطرف السرير، أثناء ممارستهما الجنسية كانت تغذيه بشتائم عنيفة، وتقضم شفتيه حتى سال منهما الدماء، وتطلب منه أن يضربها، ويصفعها، وعندما لا تراه يستجيب لطلباتها، تشحنه بعبارات وشتائم مؤذية، فينتفض جسده بالكامل، ويبدأ بالتعرق، فتزداد إثارتها، فيشتد انفعاله، فينفرج جفنيه عن ثقب عينيه الأسود، يضربها، يصفعها، تطلب المزيد والمزيد، تومض الصور في رأسه، يتعرق بغزارة، يستفحل، يرتعش، يكشر، يرفع رأسه للأعلى تومض الصور بالسطوع في خياله، صورته وهو مصوبًا المسدس على

رأس أبيه، صورة تظهر دماء أخته وهي مرتمية في حضنه ونظرات اللوم من أبيه، صورة أمه على الأرض وهي تُضرب من والده، في هذه الأثناء كانت مستلقية تحته مربطة اليدين، وهو فوقها مباشرة، تمامًا كما الوضعية التي مُثلت في المشهد الإباحي في ذلك اليوم، ولكن في الواقع لم يكن أسير هناك، كان مستغرقًا في سراديب ذكرياته الأليمة، منفصل وغائب الوعي، جسده يتحرك كآلة شهوانية بلا روح، ففي لحظة ما لم يعد يسمعها ولا يراها، يداه اللتان يصفعها فيهما موضوعة على عنقها الآن، تصرخ عليه وتشتمه، ولكن هذه المرة صرخات فزع وهلع واستجداء، تقاومه بجسدها المضبط، ترتعش، تصرخ، تتنهد، بينما هو لا يزال فوقها في غياهبه السوداء، قابض عنقها، يتحرك كماكينة جنسية، ناهزت بلوغ ذروته الجنسية، بدأ يستعيد وعيه تدريجيًّا، وتنسحب الصور من رأسه، مال للأمام وغرس رأسه في المخدة بين رأسها وكتفها، حانت لحظته، ارتعش جسده، صرخ، صرخ عاليًا، تشنج، تنهد، زفر، ثم طفيت ماكينته، كلمها، ناداها، لم تستجب، رفع جسده للأعلى، لاحظ علامات يده على رقبتها، فزع، نظر في عينيها، هزها، لا جواب، قطعت أنفاسها، قتلت.

خرج من العمارة تاركًا كل شيء وراءه عدى مسدس والده، على

هيئته مسحة جنون غير مفسرة، كان يمشي بهيئة آلية بلا وجهة بلا هدف، كماكينة بقدمين، بلا أفكار، بلا عواطف، بلا ضمير، بلا حياة بلا شيء، مخدر كليًّا، أصوات خفية مجهولة تدفعه، تسيره، تحركه.

أمام النادي كانت هنالك الحشرة، تحلق فوق كيس قمامة مرمي على الأرض، تقف على الأوساخ، تحلق، تدور حول نفسها، تعود إلى الكيس، فما تلبث لحظات حتى تعود وتكرر دوراتها العبثية بلا طائل، وبلا غاية، وبلا معنى، فتح باب النادي الخارجي، ودلف منه أسير، فدلفت معه الحشرة متحسسة عرقه وقذارته، وانطلقت تحوم حوله، فتح الباب الداخلي على رواد النادي، فولجت معه الحشرة إلى داخل النادي، وراحت تحلق من طاولة إلى أخرى، وتتمسك من شخص إلى آخر، ثم تضرب وتبعد من يد إلى يد أخرى، هكذا ظلت هناك الحشرة طوال المساء ساهرة معهم، متنقلة بعبثية من مكان إلى آخر، متجاهلين وجودها، غير مكترثين بها، ليس لها أدنى مساحة في تفكيرهم، مجرد حشرة لا قيمة لها، لم يتساءل أحدهم حتى إن كانت ذو قيمة أم لا، فهي تقع خارج ذهنهم، خارج اهتماماتهم، خارج توقعاتهم، طموحاتهم، تنبؤاتهم، خارج عالمهم بالكامل، من سيفكر بحشرة تعترض سبيله لجزء من الثانية في حفلة عامرة بصخب الموسيقى، والرقص، والشرب،

والدخان، لا أحد بالطبع، أشبه بومضة سريعة ارتمت في أحضان العدم، كانت موسيقى بينك فلويد تبث ألحانها عبر سبوفر النادي، lost for words

عندما فتح باب النادي الإلحادي، وولج منه أسير بزيه العسكري، حلقت الأعين تدريجيًّا نحوه، ومع كل نظرة يلحقها همس طفيف، ثم فم مطبق، فخطى نحو الكونتوار بحركة آلية، على خلفية بينك فلويد، وطلب كأس فودكا من النادل، تردد في بداية الأمر، ثم تبسم له ابتسامة مصطنعة وقدم له ما طلب، تجرعها بدفعة واحدة ثم كرر طلبه، تردد النادل مرة أخرى ثم استجاب له بكأس أخرى، حملها وجلس على طاولة في ركن النادي وحده يدخن أمام كأسه مستغرقًا في ذاته، شيئًا فشيئًا، عادت الأجواء تعود إلى مجراها الأول، سحابة من الدخان، صخب الموسيقى، رقص استعراضي على أنغام بينك فلويد، حشرة مجهولة أعلى السقف تحلق فوق رؤوسهم، إلى أن استقرت على شعر أسير، لم يحس بوجودها، مشت، مشت ولامست أذنيه، قشعريرة طفيفة حركت رأسه فطارت، ثم عادت ثانية وطردها بحركة آلية منزعجة، نهض نحو الكونتوار وطلب كأسًا ثالثة، تململ النادل أمامه بوجه ملتبك، ثم بضحكة مرتجفة ودية قال شيئًا ما، صخب الموسيقى غطت

على أمواجه الصوتية، ظل يحدق على شفتيه اللتان تتحركان بلا صوت، وبوجه جامد ونظرة ثابتة جافة، خضع لأمره مرة ثالثة، وحمل كأسه وعاد إلى مكانه، حلقت الحشرة فوقه واستقرت على يده، لاحظها، أدرك وجودها، ثم لوح لها فطارت، اقترب منه رافل ومعه فتاة جديدة، وراح يسمعه كلامًا غير مفهوم وسط صخب الموسيقى، رقص مع فتاته الجديدة، وبين الحين والآخر يعيد ويسمعه عبارات ساخرة تنبثق بصعوبة وسط الضجة، لم يعبأ بكلامه، وربما لم يلحظ وجوده إلى الآن، بقدر ما كان متمعنًا في ذاته وفي إغراقه بالكحول، اغتاظ صديقه من ذلك البرود الغامض الذي يصطنعه أسير في شخصيته الجديدة بزيه العسكري، فدنا منه ومال على الطاولة بحيث قابل وجهه مباشرة، وغمغم بعبارات ساخرة لم يستطع أسير من معالجتها، فظل محله ساكنًا بلا حركة كثلاجة بشرية، حلقت الحشرة وثبتت على رقبته، فأصابته برجفة لا إرادية، وضرب رقبته، سبقته الحشرة وطارت قبل أن يصيبها، لمحه رافل فهزَّ رأسه بأسلوب هزلي على حركة يده المشبوهة، أزف منه مرة أخرى وألصق شفتيه بأذنه، وهمس بها شيئًا، وعاد مكانه، حلقت الحشرة ثانية واستقرت على أذنه، ثم على كأسه، ثم على الطاولة، ضربها، طاردها بهوس، لحقها من مكانه، استقرت في مكان ما بين الأضواء،

سحب مسدس والده، وبدأ بإطلاق الرصاص عليها، علت الصرخات وانتشرت الفوضى، فسقط رافل بدمائه على الأرض، سُمعت عبارات مثل يا الله يا رب من الأفواه، اقترب نحوه ومال على أذنه وهمس ببرود:

- ووككأن للللوجودك ممعنى.

راح ليحمل كأسه رآها فارغة ومرمية على الأرض، مشى باتجاه الكونتوار وطلب كأس فودكا من النادل وفي يده المسدس، أطاعه خوفًا وارتعاشًا، جرعها دفعة واحدة، ثم خرج من النادي، فخرجت معه الحشرة، وراحت تعيد دورتها العبثية فوق كيس القمامة.

أخيرًا بلغ حيه الهادئ سوى من الأشباح، اصطبغت السماء الملبدة بالغيوم بلونها القاتم، جرجر جسده الهزيل محاط من على طرفيه أبنية خاوية، هياكلها مشوهة، وبيوتها عارية، كعجوز سافرة نحيلة جراء قصف مدفعي صاروخي على الحي محى أدنى أثر للحياة فيه، لا حي ظل ينبض بنواح الأطفال، ولا أعين قلقة تتضرع للنوم، لا شيء نهائيًّا، كل شيء بات صلبًا، مخدرًا، وعدميًّا.

داخل كتلة مدورة باردة تعلو كتفا أسير أصوات كامنة مسعورة تدفعه وسط هذا الخراب الأجرد، لتفجير رأسه، وإهماد ما يسمى الحياة

من أغلالها العظمية، لطالما كان العدم بكل معانيه يغريه ويجذبه، فراغ أسود يبلعه ويهضمه في خوائه الأبدي، وقف يجيل بتأمل هذا الدمار العبثي الغارق في صمته التام، عظمة بشرية ناتئة بين أحجار أسمنتية، جثة قطة معفنة، دمية أطفال مغبرة، غطاء صلاة أبيض ممزق، جهاز راديو صغير، يتطلع، أليس الفاصل بين الوجود والعدم لا يتعدى ومضة ضوئية؟ أليس احتمال الموت أكبر من احتمال الحياة؟!

بات لا يشعر بأي تفوق عن هذا العبث، عن تلك المواد الميتة، شلت حركته الإنسانية، كل شيء بات ضبابيًّا، متآكلًا، مخدرًا، يلمح إلى لا معنى لهذا كله، والتباين الوحيد بينه وبين جثة هامدة لحظات معدودة، وقد حرر نفسه منذ مدة طويلة من الوهم البشري الديني الذي يعظه بحكمته الخلقية، ووجوده الغائي.

صعد سلم الدرج شبه المحطم، بلغ باب بيته، رأى صندوقًا موضوع أمام الباب معنون باسم والده، حمله وولج إلى البيت المبعثر أثاثه، جلس على كرسي أبيه مترأس المائدة بعد ما عدل وضعيته، وضع أمامه الصندوق على الطاولة بعد ما نفض عنها الحجارة بحركة آلية بطيئة، فتح الصندوق وأخذ ينبش بأغراضه، أخرج بعض لوازم

والده الشخصية، هوية، صورة عائلية، رصاصة مرمية بين الأغراض، أخرج هاتفه المحمول الشخصي، فجأة لمح شيئًا صدمه وأيقظ وعيه من ثباته، أخرج هاتف آخر، مسكه وقلبه، ودقق فيه جيدًا، انتابه شعور بأنه رأى هذا الجهاز سابقًا، يعرفه جيدًا، شغَّله، تأكد إحساسه، إنه جهاز أمه، خفق صدره، تسارعت ضربات قلبه، اعتلت الحيرة وجهه، شغَّل الجهاز، كان ينذر بضعف البطارية، نقر نقرات متتالية على بعض الملفات، نعم إنه جهاز أمه، تساءل وجهه بعبارات الاستغراب، وصل إشعار، ضغط، أعاد إنذار الشحن يظهر على الشاشة، وقبل أن ينتهي الشحن، فتح الإشعار، رأى رسالته قد وصلت الآن: أبي مات.

فتش في الصندوق ثانية، رأى رسالة مخطوطة بقلم والده تشير إلى عبارات تأنيب الضمير، والعذاب، والغفران، والوداع أخيرًا، كانت الرسالة توضح مقتل الأم على يد الأب في مساء ذلك اليوم ذاته الذي هدده أسير بالمسدس بعد أن خرج من المنزل، قتلها عن طريق الخطأ وبغير قصد، كتب بالرسالة نوعًا من التبرير أن الأم استمرت في إثارة غضبه، وكلما همدت القصة تعيد تحفيزها بعنف، لم يسبق لها أن غضبت هكذا، وكأنها كانت تطلب الموت طلبًا، تنشده، لولا ضوابط دينها لقتلت نفسها، فكانت تثير الأب أكثر فأكثر كي يفعلها هو، أدانته،

حكمت على عيوبه ونواقصه، إلى أن أخيرًا دفعها عنه، فارتمت على حرف مرمر، وارتمت بين يدي الله، لم يعرف وقتها الأب كيف يخبره بهذا، حاول على مدار الفترة كلها أن يتحدث معه عبر هاتف أمه ويكفر عن خطاياه، فذيلت الرسالة بعبارات الوداع والمسامحة، أخيرًا أطلق والده الرصاص على نفسه، ومات منتحرًا، وليس كما ادعى المدرب النفسي بأنه قتل على أيدي إرهابيين، فأدرك الحقيقة بأنه خدع لمصالح وطنية، خدع لكي يخرجوا الحيوان الحاقد والكامن بداخله.

صعد سطح البناء، ودَّع العالم من حوله بنظرة أخيرة شاردة نحو شجرة عارية في محيط المقبرة، كان المشهد يحاكي نهاية قصة تراجيدية، سحب مسدس والده من جيبه، وتمعن النظر به، تأمله جيدا، ثم أرخاه، محافظًا على رأسه مطـأطئًا، تسارعت نبضات قلبه، اضطربت قسمات وجهه، تسابق شهيقه بزفيره، تهاطل المطر فوقه وابلًا، سرت قشعريرة باردة أسفل ظهره، ارتجفت على أثرها كافة أعضائه، تأتأة بشفتين مرتجفتين:

- لا لا لا، م م معنى لهذا ك ك كله، لا لا معنى لهذا كله.

علت تعابير التصميم على وجهه، أغلق عينيه لحظات بشدة، نشد

من خلالها العزم والجرأة، رفع رأسه للأعلى، سالت قطرات الماء على وجهه، رفع المسدس، ارتعشت يداه، ومضت السماء عدة ومضات علامة على قدوم أصوات، ضغط على الزناد تزامنا مع دوي الرعد بشكل حاد وعنيف، المسدس فارغ، فرغت طلقاته، ضغط مرة أخرى، لا شيء، فرغت طلقاته في النادي بالكامل، رمى المسدس بعصبية على الأرض باتجاه المدخل، ظل أسير هنا عالقًا في نقطة بين الوجود والعدم، العدم يركله في كل مرة، لا يريده، لا يستقبله، بات بلوغ العدم أصعب من الوجود، بات الوجود بالنسبة لأسير عدمًا مرئيًّا، إنه يبتغيه، يتوسل إليه، يرجوه أن يستقبله، خطى نحو ركن السطح، وقف على الحرف وحدَّق باتجاه المقبرة المتاخمة للعمارة، بعد ما ألقى نظرة أخيرة على أنقاض غرفة روح المكومة، أغمض عينيه، عزم أمره، لحظات بينه وبين العدم، بينه وبين أمه، أخته، والده، استعد، مال جسده، فجأة سقط على الأرض، رأى بوط عسكريا، ثم بدلة مموهة، خيل له أنه سيرى أباه فوقه بعد لحظات، هل هذا العدم؟ أم هذا مكان مخصص للمنتحرين، أم أنه الجحيم الموعود.

رفع بصره للأعلى، شاهد بطنه، رقبته، ثم رأى الوجه أخيرًا، ليس والده، تمنى لو أنه والده، المدرب النفسي العسكري، مصوبًا مسدسه

نحو رأس أسير، والدموع تخنق جفنيه، فقد أمسكه قبل أن يسقط، ورماه عائدًا على أرضية السطح، شبه غائبًا عن الوعي، قائلًا له باضطراب:

- قتلت ابنتي، قتلت ابنتي، خنقتها يا أخو ال...ة، قتلتها.

ظهرت ابتسامة خبيثة على وجه أسير، ذاتها الابتسامة الخبيثة التي رسمت على وجه المدرب النفسي في ذلك اليوم عندما استغل موت أخته وأبيه لأهدافه الشخصية، لا شيء هناك يعبر عنه، لا مبالاة، لا شيء نهائيًّا، أخيرًا سمع صوت طلقة رصاص.

هل هذا العدم؟ كيف أنه يدرك العدم؟ هل عليه الانتظار قليلًا؟

في هذه الأوقات كانت روح تصعد سلم البناء آتية من الضيعة باتجاه غرفتها المهدمة بهدف تفقد أغراضها إن بقي شيء لا يزال صالح للاستعمال بعد القصف الذي تعرض له الحي، بينما هي صاعدة ألقت نظرة خاطفة على بيت أسير، لاحظت صندوقًا، وهاتفًا، وصورة عائلية، ورصاصة، ورسالة مفتوحة بجانبها، دلفت بحذر وراحت تقلبهم في ذهنها، حملت الرصاصة محاولة استنباط المعنى وراء كل هذا، وفي اليد الأخرى حملت الرسالة وشرعت في قراءتها، فجأة سمعت أصوات مريبة على السطح، خرجت قلقة من البيت وفي يدها لا تزال الرصاصة

والرسالة، صعدت بهدوء ثم صعقت على مرأى رجل بزي عسكري مصوبًا مسدسه نحو أسير المرمي على الأرضية، لاحظت مسدسًا مرميًّا بجانب الباب، ذاته المسدس الذي رماه أسير قبل قليل، عندما أدرك أنه فارغ الطلقات، حشت الرصاصة ولقمته.

فجأة سقط المدرب العسكري، والدماء تسيل من رأسه، تراءت لأسير من مكانه عينا المدرب المفزوعتين، وخلف الفراغ الذي خلفه جسمه، ظهرت روح أمامه بدموعها، بارتعاشها الجسدي، بصدمتها الرهيبة، ببساطتها الساذجة، بقطرات الماء المنسدلة، رمت المسدس على الأرض، ركضت وحملت رأسه البارد، ومددته على حضنها، همس بشيء ما، تمتم بشيء، لم تستطع فهمه، مالت نحوه أكثر، تمتم بما يوحي بأنه يريد أن يموت، يرغب بالموت، يريد أن يشعر بشيء ما.

بكت، انهمرت الدموع بغزارة من عينيها، صرصر الخزان، تسربت الماء من شق متضرر على إثر شظية، تجمعت بركة حولهما، منذ أول لقاء لها معه وهي تحس بارتباط خفي يربطها به، أحست تجاهه بعاطفة أمومية، بمسؤولية حمايته ورعايته، قبوله بماضيه وحاضره ومستقبله، بواجب روحي، بصحته وسقمه، تعلقت بكل شيء به بلا تردد، كان

أشبه برماد مبعثر أمامها، لملمته وغرست رأسه في حضنها، لعله يشعر، يريد أن يشعر بشيء، ضمته بقوة، داعبت فروة رأسه بأظافرها، ومضت صور واضحة بسطوع في رأسه، استعاد لحظاته المفقودة، حلقات ذكرياته الضائعة، وكأنها بنت له نافذة بحضنها تكشف عن لا وعيه المظلم الأسود المروع، رأى مشهد المداهمة كاملًا في ثانية واحدة مطاطة، الذي أُعتم في رأسه فور الاقتحام، وبذات اليوم كان سيحال إلى محكمة عسكرية لولا منصب والده الذي أنقذه، فمنحوه إجازة حيثما ينتهوا من إجراءات فصله من الخدمة، ففي ذلك اليوم أفرغ مشط من الرصاص في جسد طفلة بعمر أخته الميتة، التي كانت صورها تتردد في رأسه بصوت المدرب العسكري وهو يقول: قتلوها أخوات ال...ة، طفلة مرتمية في حضن جندي من الجيش الحر، مستسلمًا رافعًا يده، فراحت المجموعة في اعتقالهما كرهائن، لولا أسير الذي سارع بتمزيق جسديهما سويًّا بالرصاص، وحينما انتهى مشطه، وراح يعبئ الآخر، هجمت مجموعته عليه وأطاحوه أرضًا، فأصيبت قدمه اليسرى، إلى أن استعاد وعيه في الخارج، نهض ومشى بتعرج مستغربًا سبب تعرجه.

بينما روح كانت وكأنها تشهد عبر تنهداته داخل حضنها كل لحظاته، مأساته عذاباته، ماضيه وحاضره، أخرجت من جيبها الراديو الصغير،

الذي انتشلته من بين الدمار وهي صاعدة، أشغلته، بُث على ذات التلاوات، فجأة ومضت برأسه تلك الذكرى أخيرًا واضحة وجلية، ذكرى أمه وهي تحضنه أمام المسجد على تلاوات صاعدة من المآذن، شعر بشيء ما، أشبه بذبذبات، بتنميل عضلي سرى في كامل جسده حتى الرأس، انفجر أخيرًا في بكاء عالي، ونشيج مخنوق.

أخذت الأضواء باطراد تتلاشى في ثقوب ظلمات العدم، وراحت الأصوات تدريجيًّا تنسكب في طبلة الكون الصماء، انقشعت غيمة الضباب من رأسه، تقلص العالم من حوله، واتحد بذرات الوجود في لحظة صوفية خالية من التعبير والوصف، مرحلة سامية، عارية من شوائب المادة، انبلج شيء ما داخله، أهو المعنى؟ أم أنها مجرد هلوسات؟ وفي الواقع، ما لا نستطيع إنكاره هو حقيقة ما شعر به، وهو آثار ذلك الشيء، الشيء المطمور في عمق الكون.